سوريتنا
www.souriatnapress.net
souriatna@gmail.com
السنة الثالثة | العدد (151) | 10 آب 2014

الطلاب السوريون ومستقبل العملية التعليمية

قدسيا، من الحرية إلى التشبيح

حرب المياه والكهرباء في المناطق المحاصرة

الخوف والمقاومة

بناء الهوية العلوية في سوريا

تلاميذ في إحدى مدارس السوريين في اسطنبول

عشرة أطنان من المساعدات تصل إلى شرق مدينة حلب المحاصرة و25 طناً لمناطق المعارضة في درعا من معبر الرمثا

دمشق - زليخة سالم

استطاعت منظمة الصحة العالمية يوم الأربعاء الماضي، إيصال 10 أطنان مترية من الإمدادات الطبية والجراحية، إلى أربع مشافي شرقي مدينة حلب، عبر معبر بستان القصر.

وستسهم هذه الإمدادات التي تم إدخالها بالتعاون مع الهلال الأحمر السوري في مساعدة نحو عشرين ألف شخص محاصرين داخل هذه المنطقة، يعانون من نقص حاد في الأدوية والمواد الطبية المنقذة للحياة حسب بيان منظمة الصحة العالمية.

وقدمت المنظمة بالتعاون مع الهلال الأحمر في 28 تموز الماضي 5 أطنان مترية من المساعدات الطبية إلى منطقة المعضمية بريف دمشق لمساعد نحو عشرين ألف من السكان المحاصرين فيها، لا تختلف الأوضاع الإنسانية والصحية والمعاشية فيها عن باقي المناطق التي تشهد حصاراً ممنهجاً من النظام.

وكانت منظمة الصحة العالمية قد قدمت مساعدات طبية منقذة للحياة منذ بداية العام الجاري لأكثر من سبعة ملايين شخص بحاجة ماسة لها في جميع أنحاء سورية، بما في ذلك المناطق المحاصرة التي تسيطر عليها المعارضة ويصعب الوصول لها.

والمساعدات الأخيرة جاءت تنفيذاً لقرار مجلس الأمن الدولي رقم 2165 الصادر مؤخراً والذي يسمح بإدخال المساعدات دون موافقة الحكومة عبر أربع منافذ حدودية في الشمال لمساعدة أكثر من عشرة ملايين سوري بحاجة ماسة لها حسب إحصاءات الأمم المتحدة.

في سياق آخر دخلت أولى قوافل المساعدات إلى المناطق التي تسيطر عليها المعارضة في الأردن عبر معبر الرمثا بالأردن مروراً بمعبر جمرك درعا القديم مع الأردن بعد ساعات من سيطرة الجيش الحر عليه.

وصول أول شحنة من المساعدات الإغاثية عبر معبر جمرك درعا القديم 6 / 8 / 2014

وتشرف هيئة الدفاع المدني والمجالس الثورية بالتنسيق مع الهيئات المدنية والمنظمات الإنسانية الدولية لإيصال المساعدات إلى مناطق درعا المحاصرة من قبل قوات النظام، والتي باتت تفتقر إلى أدنى مقومات الحياة.

وكانت منظمة الصحة العالمية قد نجحت الأسبوع الماضي في إدخال حوالي 25 طنا من الإمدادات المنقذة للحياة، وأدوية الأمراض المزمنة والمحاليل الوريدية، بما في ذلك الفيتامينات المتعددة للأطفال، إلى محافظة درعا، تكفي لتغطية احتياجات 424، 500 شخص.

وقالت إليزابيث هوف، ممثلة منظمة الصحة العالمية في سورية، إن محافظة درعا تعد واحدة من أكثر المناطق احتياجاً للمعونات الطبية في سورية، موضحة أن هذه الشحنة هي الثانية التي تقدمها المنظمة ل درعا هذا العام بسبب الأوضاع الأمنية الحرجة، حيث استطاعت المنظمة، عدم السلطات الصحية المحلية والمنظمات الأهلية في درعا في شهر أذار الماضي بمعونات طبية تكفي أكثر من 110 آلاف شخص.

ويحتاج أكثر من 635، 500 ألف شخص بينهم 264 ألف من النازحين إلى إغاثة إنسانية وطبية عاجلة، في ظل قصف المشافي وخروج خمسة من أصل تسعة مشافي من الخدمة، وثلاثة منها تقدم خدمات جزئية وواحدة فقط تخدم حوالي 256 ألف شخص.

ويأتي دخول هذه القوافل تنفيذاً لقرار مجلس الأمن الدولي رقم 2165 في تموز الماضي الذي يقضي بالسماح لإيصال المساعدات إلى المحتاجين في سورية عبر أربع معابر من لبنان والأردن والعراق وتركيا بدون موافقة النظام.

حلب أقدم مدن العالم وأريحا الفلسطينية الثانية ودمشق الثالثة

سوريتنا – وكالات وتقارير

خمسة مدن عربية تصدرت قائمة أقدم مدن العالم التي مازالت قائمة ومأهولة في تقرير منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة اليونسكو لعام 2013.

واحتلت مدينة حلب السورية المركز الأول 12200 عام، والثاني مدينة أريحا الفلسطينية 10600 عام، تليها بالمركز الثالث دمشق السورية 9200 عام وهي أقدم عاصمة مأهولة في العالم، وفي المركز الرابع مدينة الإسكندرية المصرية 7900 عام، وفي المركز الخامس مدينة اللاذقية 7300 عام.

المنظمات الدولية المعنية بالحفاظ على التراث والأوابد التاريخية والدول المهتمة بذلك لم تساهم في وقف دمار مدينة حلب بشكل ممنهج بشراً وحجراً، استهدف أسواقها القديمة الأثرية، وجوامعها وكنائسها الأثرية، وبيوتها القديمة التي تعود إلى مئات السنين، ولوحاتها الفسيفسائية، وتدمير بنيتها التحتية ومناطقها الصناعية بالبراميل المتفجرة والصواريخ.

يذكر أن أكثر من 80 ٪ من أثارات مدينة حلب تحولت إلى ركام بفعل براميل النظام، وقذائف داعش والنصرة، وبعضها تم سرقته ونهبه وبيعه وتهريبه إلى خارج سورية لبيعه، وأصبحت تجارة الآثار في جميع مناطق سورية تجارة رائجة ورابحة لكتائب داعش والنصرة، وتجار الحروب، وشبيحة النظام، وإذا استمر الوضع المأساوي في حلب على حاله، فستفقد المدينة العريقة هويتها الحضارية والإنسانية والتاريخية.

أحد أسواق حلب القديمة | نيسان 2014

استشهاد الإعلامي أسعد بجروك إثناء محاولته توثيق قصف مدينة حريتان

استشهد الناشط الإعلامي أسعد بجروك يوم الثلاثاء الماضي 5 / آب متأثراً بجراحه التي أصيب بها يوم الأحد وهو يحاول توثيق قصف الطيران على ساحة الشهداء في مدينة حريتان في ريف حلب الشمالي .

وكان الشهيد بجروك قد أسس شبكة حريتان نيوز لنقل أخبار ريف حلب الشمالي، وأسس مجلة "شامنا" وكان مديراً لها، وله نشاطات عدّة في المجال الإعلامي .

كما عمل الشهيد تحت اسم مستعار "أسعد زيدان" لتوثيق الانتهاكات بحق المدنيين.

الإعلامي أنس سليمان الطالب شهيداً تحت التعذيب

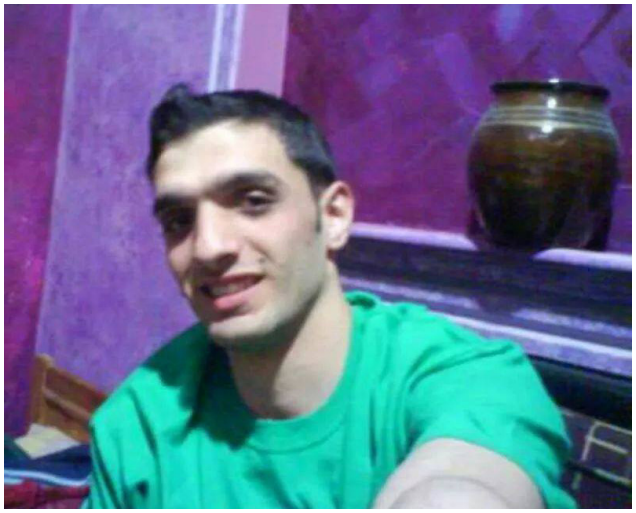

نعى المكتب الإعلامي لمدينة حمص يوم الاثنين الماضي 4 / آب استشهاد الناشط الإعلامي والميداني «أنس سليمان الطالب» أبو مالك الذي قضى تحت التعذيب في سجون النظام.

والشهيد أبو مالك مواليد 1988 من حي دير بعلبة، من الناشطين في المجال الإعلامي في أحياء حمص.

وكان الشهيد أنس الطالب قد اعتقل من المزارع الشرقية لحي دير بعلبة بعد الاجتياح الذي تعرض له الحي منذ نهاية عام 2012.

الإعلاميون والناشطون في دير الزور بين النظام وداعش

دير الزور – سعد عبد الحكيم

القسم على الولاء، والاعتراف بدولة الخلافة والمبايعة بيعة عوام لجميع الراغبين بالاستمرار في العمل الإعلامي، والاعتراف بمصطلح « الدولة الإسلامية » وكل تسمية أخرى تعتبر مرفوضة تماماً كتنظيم الدولة أو ما يسمى بالدولة أو « داعش »، والامتناع عن التعامل مع القنوات المتلفزة بشكل قطعي، وعدم المشاركة بالمداخلات عليها، هي الشروط التي أبلغتها داعش لإعلاميي وناشطي ديرالزور.

المسؤول عن الإعلام في تنظيم داعش «أبو أنس المصري» أبلغ عدداً من الصحفيين والناشطين الإعلاميين في مدينة دير الزور خلال اجتماعه معهم، أن عليهم التقيد بالشروط والأحكام في حال أرادوا الاستمرار في العمل الإعلامي في المحافظة

وتسمح داعش من ضمن الشروط المفروضة بإعطاء الصور والأخبار العاجلة للوكالات بشكل فوري، أما التقارير المصورة ومقاطع الفيديو أو التقارير المكتوبة، فيجب إرسالها وأخذ موافقة المكتب الإعلامي عليها قبيل إرسالها.

ويعمل تنظيم داعش على بث صور وفيديوهات مرعبة عن تنفيذه قطع رؤوس وبتر أعضاء في دير الزور والرقة ومناطق أخرى من خلال مواقعه على وسائل التواصل الاجتماعي، ومنتديات المتشددين المناصرين له، وبلغات مختلفة، لبث الرعب في نفوس الناس والناشطين والإعلاميين ودفعهم على الرضوخ لوجوده في المناطق التي يسيطر عليها.

وعمل التنظيم من بداية دخوله على ملاحقة الناشطين والإعلاميين واختطافهم وتعذيبهم وقتلهم، واستهداف ضباط وعناصر الجيش الحر وخاصة المعتدلين منهم، أو الفاعلين ضد النظام، بطرق مشابهة لما يفعله النظام في مناطقه باستهداف وملاحقة الإعلاميين واعتقالهم، وقتلهم تحت التعذيب، ما أظهر تحالف غير معلن من النظام وداعش لإخفاء الحقائق وطمسها.

واحتجاجاً على الشروط التي فرضها داعش على الإعلاميين قدم فريق فضائية دير الزور «التي انطلقت بعد أشهر من اندلاع الثورة» استقالته من عمله بعد يوم من الاجتماع مع «أبو أنس المصري» المسؤول الإعلامي للتنظيم في بيان لم يبين ملابسات وظروف الاستقالة، حيث جاء في البيان «نتقدم لإدارة القناة باستقالتنا هذه من العمل؛ وذلك بسبب الظروف والتطورات الحاصلة بمحافظة دير الزور».

هذا وقد وثقت لجنة الحريات الصحفية في رابطة الصحفيين السوريين، المعنية برصد وتوثيق الانتهاكات بحق الصحفيين والنشطاء الإعلاميين في سوريا استشهاد ناشطين إعلاميين خلال شهر تموز الماضي ليرتفع بذلك عدد ضحايا الإعلام إلى (246) إعلامياً منذ آذار 2011، وقد رصدت اللجنة إضافةً إلى ذلك مجموعة أخرى من عمليات احتجاز لإعلاميين نفذتها ميليشيا «الآسايش» التابعة لحزب الاتحاد الديمقراطي، وانتهاكات بحق الإعلاميين في المناطق الخارجة عن سيطرة النظام أو تلك التي لهُ وجود غير ظاهر فيها.

عائلة فلسطينية على الحدود مع الأردن

النظام يهجر الفلسطينيين من مخيمات درعا والأردن يرفض دخولهم

سوريتنا – وكالات وتقارير

أبعدت السلطات الأردنية قسراً أكثر من 100 لاجئ فلسطيني فروا من سورية نتيجة استهداف مخيماتهم من قبل قوات النظام، وتمكنوا من الدخول الأردن منتصف 2012 بينهم سيدات وأطفال، بعد أن كانت قد حظرت رسمياً دخول الفلسطينيين القادمين من سورية منذ شهر كانون الثاني 2013.

وجاء في تقرير نشر مؤخراً لهيومن رايتس ووتش بعنوان "غير مرحب بهم: معاملة الأردن للفلسطينيين الفارين من سوريا" قيام الأردن بتجريد بعض الفلسطينيين الذين أقاموا في سورية لسنوات عديدة من الجنسية الأردنية، واحتجازهم أو ترحيلهم إلى سورية دون وثائق ثبوتية، حيث تتعارض معاملة الأردن المتشددة للفلسطينيين الفارين من سورية مع معاملته للمواطنين السوريين، الذين سُمح لما لا يقل عن 607 آلاف منهم بدخول البلاد منذ بدء الأحداث فيها.

الأردن ليست الدولة الوحيدة التي فرضت قيوداً على دخول الفلسطينيين القادمين من سورية فمعظم الدول المجاورة باستثناء تركيا، فرضت قيود مشددة على دخول الفلسطينيين الفارين من سورية، تاركين الآلاف عالقين في مواجهة أخطار جمة.

وطالبت هيومن رايتس ووتش الحكومة الأردنية بإلغاء الحظر الذي فرضته على دخول اللاجئين الفلسطينيين ووضع حد لترحيل الفلسطينيين القادمين من سورية، ويتعين على البلدان المجاورة كلها احترام حقوق اللاجئين الفلسطينيين في التماس الأمن واللجوء خارج سورية، طالما ظلوا يواجهون انعدام الأمن والاضطهاد هناك.

وتقوم قوات الأمن الأردنية باحتجاز وترحيل فلسطينيين ممن يدخلون من المعابر الحدودية غير الرسمية باستخدام وثائق ثبوتية سورية مزورة، أو ممن يدخلون بطريق غير مشروع عبر شبكات التهريب، وتسمح رسمياً بدخول الفلسطينيين القادمين من سورية من حاملي الجنسية الأردنية، لكنه بالممارسة منعت دخول الفلسطينيين الذين انتهت صلاحية وثائقهم الأردنية، وفي بعض الحالات جردتهم من الجنسية الأردنية تعسفاً وأعادتهم قسراً إلى سورية.

وتم توثيق قيام الأردن بترحيل سبعة فلسطينيين قادمين من سورية قسراً في 2013 و2014، ونقل أربعة آخرين إلى "سايبرسيتي"، وهو مرفق احتجاز مغلق للاجئين الفلسطينيين والسوريين في شمال الأردن، وفي حالات الترحيل قامت السلطات الأردنية بفصل وترحيل الرجال الفلسطينيين بعيداً عن أسرهم، تاركة الأسر في بعض الحالات دون عائلها الرئيسي.

وتنتهك عمليات الترحيل التزام الأردن الدولي بعدم الإعادة القسرية، وهو الحظر المفروض في القانون الدولي على إعادة اللاجئين وملتمسي اللجوء إلى أماكن يتهدد فيها الخطر حياتهم أو حريتهم، أو إعادة أي شخص معرض لخطر التعذيب.

وكان رئيس الديوان الملكي ورئيس الوزراء الأسبق فايز الطراونة قد قال عن سياسة عدم السماح بالدخول إن تدفق أعداد كبيرة من الفلسطينيين من سورية من شأنه تغيير التوازن السكاني في المملكة والتأثير على استقرارها، وإنه يشك في قدرة الأردن على ترحيل الفلسطينيين (وهم جماعة بلا جنسية) بشكل قانوني إلى سورية فور انتهاء الأحداث هناك، إذا سمح لهم باللجوء في الأردن.

ورغم سياسة عدم القبول الأردنية قام أكثر من 14 ألف فلسطيني قادم من سورية، حتى تموز 2014، بالتماس دعم الأونروا في الأردن، ودخل منهم على نحو قانوني 1300 شخص، قبل شروع السلطات في إبعاد الفلسطينيين على الحدود، وقد جاء معظمهم من مخيمات للاجئين الفلسطينيين وقرى في الجنوب السوري، أو من مخيم اليرموك للاجئين الفلسطينيين في الضواحي الجنوبية لدمشق، وكلها مناطق شهدت قتالاً عنيفاً.

ونتيجة لسياسة الحكومة الأردنية، لا يمتلك كثير من الفلسطينيين القادمين من سورية أوراقاً سليمة للإقامة في الأردن، مما يعرضهم للاستغلال والتوقيف والترحيل. ولا يجرؤ الفلسطينيون القادمون من سورية دون وثائق على التماس الحماية أو الجبر من الحكومة الأردنية ضد الاستغلال وغيره من الانتهاكات، ولا يمكنهم الإقامة الشرعية في المخيمات الرسمية المعدة للاجئين السوريين، كما لا يمكنهم العمل بشكل قانوني لكسب المال اللازم لاستئجار مساكن خارج المخيمات.

لم تتصد الدول المانحة وهيئات المعونة الدولية بشكل كاف للمصاعب الإنسانية التي تواجه الفلسطينيين، ولا توفر لهم من المساعدات الإنسانية سوى القليل، ويستبعد الفلسطينيون في خطة الاستجابة الإقليمية للأزمة السورية لسنة 2014 في القسم الخاص بالأردن، ولا تتطرق فرقة العمل المشتركة بين الوكالات، وهي الآلية المحلية للتنسيق فيما بين وكالات المساعدات المعنية بالاستجابة للاجئين السوريين في الأردن، والتي ترأسها المفوضية الأممية لشؤون اللاجئين، لا تتطرق إلى القضايا المتعلقة بالفلسطينيين القادمين من سورية.

وقالت هيومن رايتس ووتش إن على المانحين الدوليين ووكالات المساعدات التعاون فيما بينهم لضمان حصول الفلسطينيين القادمين من سورية على المساعدة الإنسانية وتدابير الحماية على قدم المساواة مع الخدمات المقدمة للمواطنين السوريين في الأردن، ويتعين على المانحين الدوليين رفع مستوى المساعدات المقدمة للأردن وللوكالات الإنسانية المعنية بالأزمة السورية، ويجب على البلدان خارج المنطقة توفير المساعدة المالية للبلدان التي تستقبل لاجئين فلسطينيين من سورية، كما ينبغي لها دراسة الموافقة على إعادة التوطين المؤقتة للاجئين الفلسطينيين المستضعفين، ولا يتعين على اللاجئين الفلسطينيين التنازل عن حقهم في العودة بمجرد قبول عرض بإعادة التوطين المؤقتة في بلد ثالث.

25 ألف برميل نفط سوري يومياً تنقل إلى العراق
داعش تسعى إلى السيطرة على حقول رميلان في الحسكة

دمشق - أنليل فارس

قال ناشطون في دير الزور، لـ"سوريتنا"، إن "تنظيم الدولة الإسلامية – داعش" تنقل النفط والغاز من الحقول النفطية في دير الزور إلى العراق عبر صهاريج خاصة، في حين حذر مجلس الأمن الدولي من أن أي جهة يتم ضبطها تتعامل في نفط من "الجماعات الإرهابية" يمكن أن تواجه عقوبات.

وقال أبو عمر الديري، ناشط في ريف دير الزور، إنهم "يرصدون يومياً عشرات صهاريج نقل البترول محملة بالبترول متوجهة إلى العراق"، لافتا إلى أن "المحروقات متوفرة في الدير عبر محطات تكرار محمولة أو طرق بدائية أو يؤتى به من العراق".

وكان تنظيم "داعش" سيطر على محافظة دير الزور مؤخراً، ما عدا أحياء قليلة في المدينة ومطارها، في حين كان يسيطر على الرقة، حيث يقدر مجمل ما يسيطر عليه التنظيم من مصادر النفط السوري بـ60٪.

وقدر أبو عمر كمية النفط التي تستخرجها داعش من سوريا بنحو 25 ألف برميل يومياً، ينقل معظمها إلى العراق.

وكانت تقارير رسمية صدرت مؤخراً أفادت أن إنتاج النظام انخفض إلى 17 ألف برميل، في حين بلغت خسائر قطاع النفط 3.5 تريليون ليرة سورية.

من جانبه، قال أبو عبدالله، ناشط من دير الزور، إن "تنظيم الدولة بدأ بالتوسع باتجاه الحسكة، التي تسيطر على معظم مناطقها قوات الحماية الكردية "YPG"، للاستيلاء على حقول رميلان، التي كانت تنتج في عام 2011 نحو90 ألف برميل يومياً، وتتكون من 1322 بئراً، إضافة إلى 25 بئراً من الغاز".

وكان التنظيم سيطر قبل أيام على إحدى القطع العسكرية التابعة للقوات النظامية، كمقدمة للسيطرة على محافظة الحسكة، وسط استنفار من قبل قوات الحماية الكردية لصد مقاتلي التنظيم، المتفوق تسليحا.

أما "الإدارة الذاتية" الكردية أنشأت نهاية العام الماضي شركة «توزيع محروقات الجزيرة» المعروفة اختصاراً بـ «KSC»، لتمارس الاختصاصات ذاتها التي كانت تقوم بها سابقاً شركة «سادكوب» الحكومية، لاستثمار عدة آبار بدفع ذاتي أنتجت منها ما يقارب 400 ألف ليتر من مادة المازوت يومياً تبيعها بسعر 30 ليرة سورية للتر الواحد (في حين يباع بـ60 ليرة في مناطق النظام)، إضافة إلى 150 ألف ليتر من مادة البنزين بسعر 150 ليرة سورية لليتر الواحد(120 ليرة في مناطق النظام).

وتقدر تقارير كمية النفط التي يستخرجها داعش من العراق بـ100-150 ألف برميل يوميا، تباع من خلال تجار السوق السوداء، في إيران وإقليم كردستان وتركيا، بأسعار تتراوح بين 15-25 دولار للبرميل، في حين أن السعر العالمي أكثر من 100 دولار للبرميل.

بدوره أعرب مجلس الأمن الدولي مؤخرا عن قلقه بشأن تقارير أفادت بأن مقاتلين متطرفين سيطروا على حقول نفط وخطوط أنابيب في سوريا والعراق وحذر من أن أي جهة يتم ضبطها تتعامل في نفط من "الجماعات الإرهابية" يمكن أن تواجه عقوبات.

وقال المجلس في بيان إن أي تجارة في النفط مع الدولة الإسلامية أو جبهة النصرة المرتبطة بالقاعدة تمثل انتهاكا لعقوبات الأمم المتحدة لأنه تم إدراج الجماعتين على القائمة السوداء.

وجاء في البيان الذي صاغته روسيا أن المجلس "يندد بقوة بأي تعامل في تجارة مباشرة أو غير مباشرة في النفط من سوريا والعراق يشمل هذه الجماعات الإرهابية" و"يؤكد على أن مثل هذه التعاملات تنطوي على دعم مالي للإرهابيين وربما تؤدي إلى إدراج المزيد في قوائم العقوبات."

وجاء في البيان إن مجلس الأمن "يراقب بقلق أي حقل نفط وبنية أساسية مرتبطة به تسيطر عليها منظمات إرهابية يمكن أن يدر دخلا ماديا للإرهابيين وهو ما يدعم جهودهم لتجنيد أشخاص بينهم مقاتلون إرهابيون أجانب ويعزز قدراتهم على العمل لتنظيم وتنفيذ هجمات إرهابية"، منبها كل الدول إلى ضرورة التأكد من أن مواطنيها أو رعاياها داخل الأراضي لا يتعاملون في النفط مع الدولة الإسلامية أو جبهة النصرة.

وكانت تقارير أفادت أن تنظيم "الدولة الإسلامية-داعش" تجني يومياً أكثر من مليون دولار جراء مبيعات النفط، ما يجعله يتصدر "التنظيمات الإرهابية" من جهة التمويل الذاتي، إضافة إلى المساحة الجغرافية التي تسيطر عليها".

يشار إلى أن خبراء في النفط كانوا قد قلّلوا من أثر مبيعات تنظيم الدولة في السوق السوداء على سوق النفط العالمي، حيث أن النفط المباع كان في الأصل للاستهلاك المحلي.

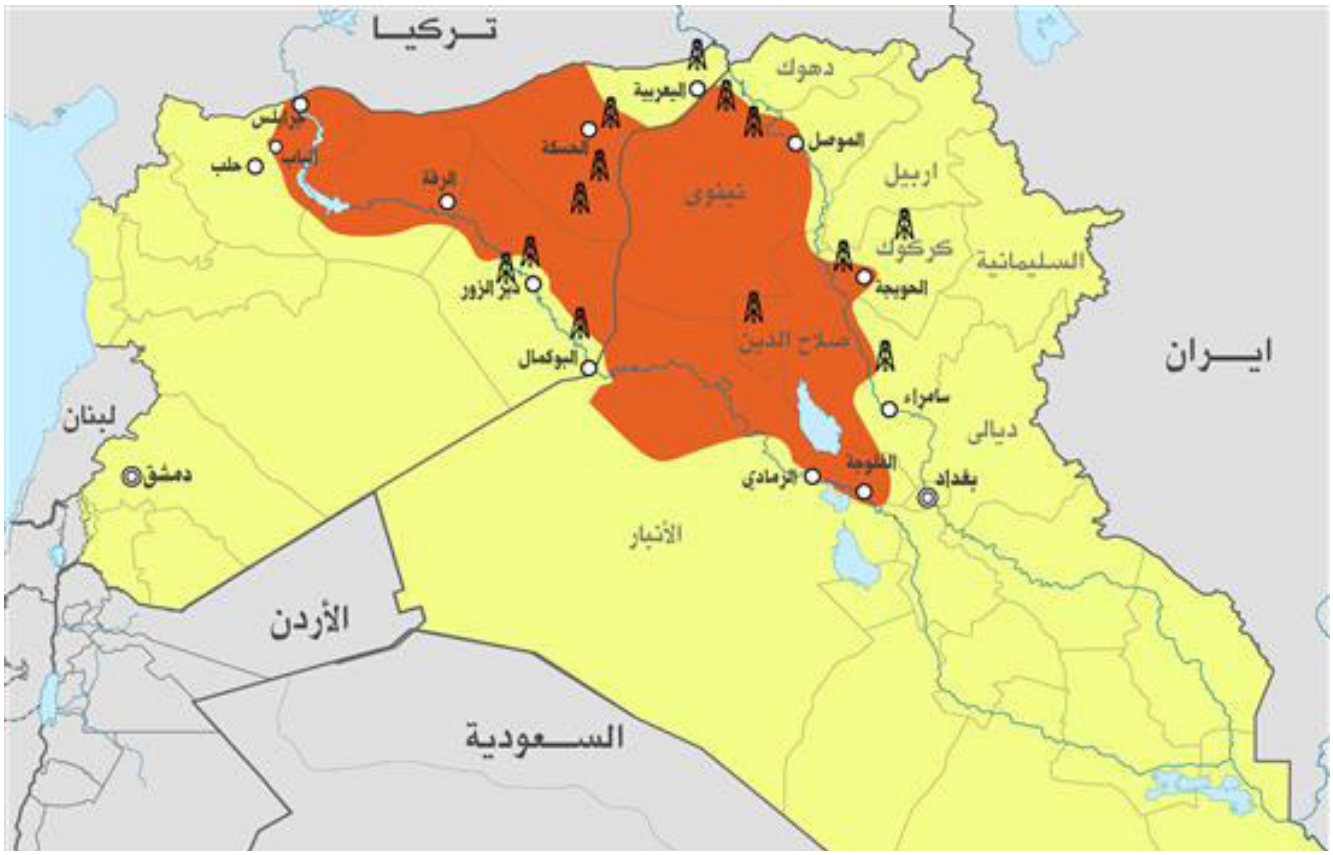

حقول النفط التي يسيطر عليها تنظيم داعش

انتشار حالات التهاب الكبد الوبائي والسل
نداءات استغاثة من الغوطة الشرقية لإنقاذ ألاف المدنيين من الحصار

مياه الصرف الصحي تسقي أراضي الغوطة الشرقية الزراعية

سوريتنا – وكالات وتقارير

أطلقت مجموعة من النقاط الطبية المنتشرة في مدن وبلدات الغوطة الشرقية في ريف دمشق العديد من نداءات الاستغاثة بعد أن ساءت الأمور المعيشية إلى درجة خطيرة نتيجة الحصار الجزئي والكامل الذي تخضع له تلك المدن والبلدات منذ أكثر من عام،

وأدى نقص الغذاء الكافي وقلّة تنوع الوارد الغذائي إلى الإصابات بحالات سوء التغذية، التي أدت بدورها إلى انخفاض السوية المناعية لدى مواطني الغوطة الشرقية، ونتج عنه ظهور أمراض كثيرة كان على رأسها مرض التيفوئيد / الحمّة التيفية / والذي يعتبر التلوث في الطعام ومياه الشرب من الأسباب الرئيسية لانتشاره إضافة إلى مرض التهاب الكبد الوبائي بأنواعه (إيه - بي - سي) ومرض السل، والحلق النطاقي وهو أحد الأمراض الجلدية الذي بدأ بالانتشار والظهور في الغوطة.

ونقل مركز توثيق الانتهاكات في بيان له عن الطبيب ماجد أبو علي مسؤول العلاقات الخارجية في المكتب الطبي الثوري الموحد في الغوطة الشرقية قوله: أن الصادّات الحيوية المعروفة لمكافحة مرض التيفوئيد غير متوفرة بشكل كاف في الغوطة الشرقية الخاضعة لحصار قوات النظام أكثر من عام ونصف العام، موضحاً أن التيفوئيد غير قاتل ونسبة الوفيات فيه أقل بكثير من أمراض السل، والتهاب الكبد الوبائي مثلاً، إلا في حالة معاناة المريض من نقص كبير في المناعة.

وأشار الطبيب ماجد إلى أنه تم الكشف عن إصابة ما لايقل عن ثلاثة آلاف حالة في عموم مدن وبلدات الغوطة بمرض التيفوئيد منذ بداية العام الجاري أغلبهم من الفئات العمرية المتوسطة والأكبر عمراً، وقلة من الأطفال، مع ملاحظة انتشار حالات الإسهال والالتهابات المعوية بشكل كبير جداً لدى الأطفال لأسباب متعددة خلقها جميعاً انخفاض سوية نظافة الأطعمة والمياه نتيجة للحصار واستخدام مصادر غير صحيحة لمياه الشرب والتنظيف مؤكداً أن التحدّي الأكبر للأطباء يكمن في الأعداد الكبيرة للمرض بسبب العدد الهائل للسكان وصعوبة توفير الكميّة اللازمة من الدواء لجميع المصابين في هذه الظروف السيئة بسبب الحصار"

وحول مرض السل المعدي والقاتل قال أحد الأطباء: أن هذا المرض يستدعي حالة طوارئ في حال انتشاره في أي مجتمع لأن نسبة الوفيات فيه عالية جداً وتصل إلى أكثر من 50٪ في حال عدم توفر العلاج، وهو يحتاج إلى علاج نوعي جداً، فصادّات مرض السل لا تباع في الصيدليات العادية ويمنع تداوله بشكل كبير، حيث أنّه عادة يتمّ الحفاظ عليه في ظروف معينة لمنع تشكّل أيّة "سلاسل معنّدة" حوله، وهذه الصادات لا تباع وإنّما توزع عن طريق منظمة الصحة العالمية والمراكز التابعة لها عادة، أو وزارات الصحة في الدول، أو مستوصفات الهلال الأحمر أو الصليب الأحمر، وعملياً هي أدوية معدومة في المناطق المحاصرة، وخاصة الغوطة الشرقية، بعكس أدوية مرض التيفوئيد التي يمكن الحصول عليها بطرق مختلفة.

وأوضح أنه تم تشخيص أكثر من مئة حالة في الغوطة الشرقية، وربما هناك مئات الحالات الأخرى لم نستطع الوصول إليها بسبب ضعف الإمكانيات أولاً وبسبب طبيعة المرض ثانياً، فهو من الأمراض التي يمرّ بحالات كامنة فهو غير ظاهر عند الكثير من المرضى بسبب عدم ظهور أعراضه بالرغم من أنّ المريض يكون حاملاً "لعصيات السل" عدا عن الخوف من انتقال المرض برذاذ اللعاب من مريض لآخر في حالات السل الرئوي، ولكن بسبب الظروف الصعبة التي يمرّ بها المدنيون في الغوطة الشرقية وعدم توفر الوقود الكافي لغلي الطعام مثلاً وانعدام توفر مياه الشرب النظيفة أو مياه نظيفة لغسل الخضروات والفواكه، كل هذا أدى إلى انخفاض المناعة لدى معظم سكان الغوطة وأصبحوا عرضة للعديد من الأمراض منها مرض السل.

وقد انتشرت في الغوطة الشرقية مؤخراً مئات الحالات لمرض التهاب الكبد الوبائي نوع (إيه) أو ما يسمّى باليرقان، وهو النوع الأكثر انتشاراً في الغوطة مقارنة مع نوعي (بي – سي) والأنواع الأخرى له، وهو مرض بطبيعته لا يمتلك بروتوكولاً علاجياً ما خلا تحسين الحالة الصحيّة للمريض، أو السوية الصحيّة التي يعيش فيها المريض وذلك من خلال تحسين الظروف الطبّية المحيطة بالمريض إضافة إلى تحسين نوعية الطعام والحصول على ظروف راحة مناسبة، وجميع هذه الأسباب منعدمة في الغوطة التي بلغت نسبة الإصابات بهذا النوع (إيه) ألاف الحالات المسجلة شهرياً بطريقة يصعب إحصائها.

وهنالك نوع آخر شائع جداً في الغوطة الشرقية وهو ما يسمّى (اليرقان الولادي)، وفي حالات الإصابة بنوعي (بي – سي) هذه الحالتين تعتبران من الحالات المميتة لا يكفي فيهما تحسين ظروف الصحية للمصاب لأنها تعتمد على نوع معين " غير متوفر في الغوطة " من البروتوكولات العلاجية، على أنّ هنالك عدة حالات تمّ رصدها مؤخراً في الغوطة الشرقية من مدنيين مصابين بالنوع المميت لهذا المرض وخاصة في أواخر العام الماضي، حيث كان الرصد يتمّ عن طرق فحص جميع عينات الدم المنقولة، إلا أنّه ومنذ بداية العام الجاري لم تعد المراكز الطبيّة قادرة إلاّ على عملية تحليل الزمرة الدموية فقط وذلك في حالات نقل الدم.

و قال أحد الأطباء لمركز توثيق الانتهاكات: في حالات الإصابة بالنوع المميت لالتهاب الكبد يُصاب المريض بما يسمّى "التليّف الكبدي" وهو ينتقل بالدم بشكل رئيسي وأيضاً عن طريق التواصل الجنسي، فإذا كان الزوج مصاباً به فإنّ الزوجة سوف تصاب غالباً بنفس المرض، وفي حالة الغوطة الشرقية تم رصد العديد من حالات الإصابة بنوعي (بي – سي) عبر عمليات نقل الدم، إلاّ إنّ النسبة الكبيرة للمصابين من الحاملين لفيروس النوع (إيه) وهو النوع الغير مميت ولكن رغم ذلك فإنّنا نحتاج إلى رعاية صحيّة عاجلة لمئات الحالات.

وأكد العديد من الأطباء في هذه النقاط أن جميع الأمراض الآنف ذكرها، هي نتيجة انخفاض السوية المناعية للسكان، وذلك بسبب الحصار المفروض على مدن وبلدات الغوطة الشرقية منذ شهور مديدة ومنع دخول المواد الطبيّة والغذائية بشكل طبيعي في سياسة ممنهجة قديمة / جديدة تتبعها قوات النظام لإخضاع المناطق الثائرة لسيطرتها، وهو ما أدى بدوره إلى انخفاض الوارد الغذائي، إضافة إلى صعوبة الحصول على النظافة الشخصية التي يستحيل على المدنيين الحصول عليها بسبب عدم توافر الوقود الذي يستخدم أيضاً في غلي الطعام، إضافة إلى قطع الكهرباء من قبل قوات النظام عن جميع مدن وبلدات الغوطة، وندرة المياه النظيفة للشرب أو لغسل الخضروات والفواكه، كما أدّى اعتماد بعض المدنيين إلى استخدام حطب الأشجار إلى تدمير كبير في أشجار الغوطة، واضطر بعد المدنيين في مناطق أخرى من الشرب من مياه السواقي بسبب عدم القدرة على سحب المياه الجوفية كما في حالة منطقة زبدين.

يذكر أن معظم الأراضي الزراعية في الغوطة الشرقية تسقى بمياه الصرف الصحي بسبب صعوبة استخراج المياه الجوفية، لعدم توفر الوقود وارتفاع أسعاره.

حرب المياه والكهرباء في المناطق المحاصرة

■ دمشق - زليخة سالم

تحذيرات كثيرة أطلقها الناشطون المدنيون، ومنظمات إنسانية وحقوقية محلية ودولية، من كارثة إنسانية وبيئية تتهدد عددا من المناطق مثل حلب والرقة ودير الزور وريفي دمشق الشرقي والغربي، ومناطق في درعا، من قطع المياه والكهرباء لأيام عديدة متواصلة، ما قد يتسبب في إحياء أمراض قاتلة سبق وأن اختفت من حياة السوريين، وانتشار الأوبئة، والقضاء على ما تبقى من المحاصيل التي يقتات منها الأهالي المحاصرون، واحتراقها، ناهيك عن تلوث التربة والمزروعات نتيجة القصف المتواصل على هذه المدن.

في حلب تتبادل الكتائب العسكرية والإسلامية في المدينة، وجبهة النصرة والهيئة الشرعية الاتهامات حول المسؤولية عن قطع المياه عن أحياء حلب، التي دمر القصف معظم شبكاتها، بعد أن قطعت «النصرة» المياه منذ أكثر من ثلاثة أشهر عن مناطق في حلب خاضعة لسيطرة النظام، وضختها إلى المناطق الخاضعة لسيطرتها وسيطرة الكتائب الإسلامية، في وقت يرفض فيه النظام إصلاح الشبكات التي دمرتها طائراته وبراميله المتفجرة، مما جعل جميع الأطراف تعبث بشبكات المياه.

ويلجأ الأهالي خلال فترة الانقطاع، إلى المساجد، يقفون طوابير طويلة يحملون «بدوناتهم التي أصبحت مظهرا من مظاهر المدينة، إضافة إلى اللجوء إلى ما تبقى من الآبار الموجودة، والتي يُتخوف من عدم صلاحيتها للشرب نتيجة تلوث بعضها، ما ينذر بانتشار أمراض وبائية.

مدينة الرقة بدورها ليست في أفضل حال، فقد حذر الناشطون من أن انقطاع المياه والكهرباء سيتسبب بكارثة إنسانية، مع ارتفاع درجات الحرارة وموجات الغبار التي تمر بالمدينة بين الحين والآخر، وخاصة بعد انخفاض منسوب المياه في سد الفرات، الأمر الذي ينبئ بخروجه من الخدمة قريباً، علماً أنه المصدر الوحيد لمياه الشرب والري في الرقة، وخروجه فعلياً من الخدمة سيكون إذا ما حدث، كارثة ستهدد حياة مئات الآلاف من السكان والنازحين إلى المدينة.

انقطاع الكهرباء شبه المتواصل في المدينة، وعدم وجود المحروقات الكافية لتشغيل المولدات ينجم عنه انقطاع المياه بشكل شبه تام، لأن انقطاع الكهرباء لمدة ساعة واحدة يتسبب بانقطاع المياه لمدة أربع ساعات على الأقل، وهو الوقت الذي تستغرقه إعادة تشغيل وضغط الشبكة، حسب مدير مؤسسة المياه بالمدينة.

أزمة المياه تعاني منها بعض أحياء العاصمة دمشق أيضاً، نتيجة انقطاع الكهرباء لساعات طويلة، ما يؤدي إلى توقف محطات الضخ، ويضطر الأهالي إلى شراء المياه من الصهاريج الجوالة، التي تستغل حاجة المواطنين، برفع الأسعار إلى مستويات غير مقبولة.

ويستخدم النظام في المنطقة الجنوبية من دمشق، وريفي دمشق الشرقي والغربي، الخاضعين لسيطرة المعارضة، قطع المياه والكهرباء كسلاح عقاب جماعي للأهالي المناهضين لحكمه، بعد سياسة التجويع والحصار التي يتبعها منذ أكثر من عام ونصف العام.

ويهدد شح المياه المنطقة الجنوبية من دمشق، التي لا يصلها الماء سوى ساعتين في اليوم، وفي الغالب تكون خفيفة ومحملة برائحة ولون كريهين، حسب الناشطين في مخيم اليرموك، ما يعني وجود حالات تلوث فيها، ورغم هذا يضطر الأهالي إلى استخدامها لعدم وجود بديل في ظل انقطاع الكهرباء، وعدم القدرة على استخدام المضخات، هذا كله فاقم الأزمة التي طالت كذلك مشاريع الاستصلاح الزراعي التي عملت المنظمات الإغاثية على إنشائها لتلبية احتياجات المواطنين المحاصرين، ومستلزماتهم الغذائية، في المخيم الذي فاق عدد شهداء الجوع فيه عتبة المئة شخص، المشاريع هذه، يتهددها انقطاع المياه بالخطر، إذا لم تكفِ المياه الجوفية التي اعتمد الناشطون على استخدامها في الري.

حلب - تموز 2014

وكان أحد العاملين في جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني داخل مخيم اليرموك، قال سابقاً لمنظمة العفو الدولية إن «الناس غير قادرين عموما على الحصول على كميات كافية وآمنة من مياه الشرب، والمياه لا تتوفر عبر الصنبور إلا ساعة واحدة يوميا عقب الضرر الذي لحق بشبكة أنابيب المياه في اليرموك، جراء القصف المدفعي المتكرر الذي وقع في كانون الأول 2013 أو نحو ذلك، كما تتوفر في بعض المناطق آبار مياه ولكنها تستلزم توفير كميات كبيرة من الديزل من أجل ضخ الماء، ناهيك عن عدم صلاحيتها للشرب، كونها تحتوي على جزئيات الرمل التي تسبب الإصابة وفق ما قيل بحصى في الكلى وأوجاع في المعدة».

وأضاف: «لقد صاحب تفاقم أزمة المياه، ارتفاع حالات التهاب المسالك البولية، حيث تُكتشف حوالي 50 حالة جديدة أسبوعياً، بالإضافة إلى اضطرار الناس للترشيد في استهلاك المياه لأغراض الاستحمام والنظافة، الأمر الذي تسبب بإصاباتهم بالأمراض الجلدية المُعدية».

لكن الحاجة تبقى أم الاختراع، وتجديد الطرق القديمة في الري هو ما فعله سكان الغوطة الشرقية، من خلال مشاريع الكباسات اليدوية، التي قدمها (ملتقى أهالي دوما) و(مؤسسة سنابل)، لاستخراج المياه الجوفية من الآبار التي تم حفرها بعد انقطاع المياه والكهرباء بشكل كامل عن الغوطة، وذلك لسد حاجة الأهالي من المياه، وري الأراضي الزراعية التي يتم العمل عليها، لتلبية الاحتياجات الغذائية في ظل الحصار الخانق، وواقع منع إدخال المواد الغذائية إليها.

وفي حين رأت الشبكة السورية لحقوق الإنسان، أن قضية قطع المياه عن بعض المدن في سوريا، تحولت إلى سلاح بيد الأطراف المتحاربة، تستخدمه للضغط على بعضها البعض، ليدفع المواطنون المدنيون الثمن، اتهمت النظام السوري بقطع المياه بشكل كامل عن حي الحجر الأسود في العاصمة دمشق منذ أسبوعين، ووضعت قطع النظام السوري للمياه عن حي جوبر الدمشقي، في سياق عقوبة جماعية لما يزيد على 20 ألف مواطن من أهالي الحي، أكثر من نصفهم نساء وأطفال، بعد رفض أهالي الحي الدخول في عملية هدنة مع النظام السوري، موضحة في تقرير لها بهذا الشأن، أن «أحوال السكان تدهورت في الأيام الأخيرة على نحو كارثي، بعد أن حاول عدد من الأهالي في الأيام الأولى استخراج المياه من الآبار الموجودة في المنطقة، مما تسبب في إصابة العشرات منهم بحالات تسمم».

ولا تختلف الأوضاع في داريا والمعضمية المحاصرتين، عن باقي المناطق التي أصاب النظام ببراميله المتفجرة البنية التحتية لشبكات المياه والكهرباء فيها، علماً أن داريا تعتمد على زراعة الخضروات لتأمين اليسير من الموارد الغذائية للبقاء على قيد الحياة.

وفي الزبداني، التي تشهد انقطاعاً تاماً في المياه والكهرباء منذ أيام، يضطر الأهالي، وخاصة النساء والأطفال، لإحضار المياه من مناطق بعيدة، مخاطرين بحياتهم بالمرور على الحواجز التي تحيط بالمدينة، إضافة إلى جفاف المزروعات والمحاصيل، نتيجة نقص المياه، وعدم قدرة الأهالي على الوصول إلى أراضيهم المستهدفة بالبراميل المتفجرة وقناصة الموت.

ونتيجة الحصار وقطع المياه والكهرباء، تأثرت أوضاع سكان الغوطة الشرقية وبقية المدن المحاصرة، الصحية والمعاشية، إذ أوضحت طبيبة من الغوطة الشرقية لمنظمة العفو الدولية في شهر حزيران الماضي، أنها لاحظت منذ بدء الحصار «بروز أعراض نقص في التغذية، وتراجع عام في صحة الناس، وظهور أعراض الإعياء والدوار على المزيد من الأشخاص، كما عاودت أمراض للظهور عقب انقراضها قبيل عام 2011، من قبيل الحصبة والجدري والتيفوئيد، والتهاب الكبد الوبائي (أ)، وأمراض جلدية مثل الجرب والقمل والحساسية بأنواعها، وثمة ما يشبه الانتشار الوبائي الآن، للالتهابات والعدوى الباطنية والمعوية».

وقالت الطبيبة: «نظراً لنقص المضادات الحيوية، وأدوية علاج الإسهال وعدم توفر الأمصال، ثمة العديد من المرضى الشبان أصيبوا بالجفاف والفشل الكلوي الحاد، مما أدى إلى وقوع عدة حالات وفاة، معظمها بين الأطفال (..) أثناء عملي مع الفريق لاحظت تفشي وباء جديد في الغوطة، ألا وهو السل، الناجم عن نقص التغذية والهُزال العام والضعف الذي أصاب نظام المناعة، بالإضافة إلى غياب الأدوية العلاجية، وأعتقد أننا ربما سنعثر على مئات الحالات على مستوى منطقة الغوطة ككل».

وشكّل الرضع ممن هم دون السنة من العمر، معظم حالات الوفاة تلك، جراء عدم قدرة الأمهات على إرضاعهم، إضافة إلى شح حليب الأطفال، وآخرون توفوا عقب تناولهم طعاما غير صالح للاستهلاك البشري، كما حدثت وفيات جراء النقص في أساسيات الرعاية الطبية (مثل النقص في بعض الأدوية تحديدا، من قبيل أدوية علاج أمراض القلب والسكري والفشل الكلوي)، ونقص المعدات الطبية، من قبيل تلك المطلوبة أثناء عمليات بتر الأعضاء، الأمر الذي تسبب بوفاة البعض جراء إصابتهم بالغرغرينا، بالإضافة إلى عدم وجود عدد كافٍ من الطواقم الطبية، وذلك حسب شهادة الطبيبة.

تتشابه المناطق المحاصرة في معاناتها من شح المواد الغذائية والطبية والإنسانية، وانقطاع المياه والكهرباء والاتصالات، وسعي سكانها لإيجاد البدائل اللازمة للإبقاء على الحياة والاستمرار، في ظل حصار يحرمهم أدنى حقوقهم كبشر قبل أن يكونوا مواطنين.

تدهور الوضع الاقتصادي في إدلب
يلحق تجار المدينة بصفوف المنكوبين وتجار الساحل يتحكمون بالأسعار

■ إدلب - عثمان إدلبي

أثرت السياسة التي أتبعها النظام في محافظة إدلب والتي تقضي بفصل مناطق سيطرته عن المناطق التي تسيطر عليها قوات المعارضة على الوضع الاقتصادي في مركز المدينة وباقي المناطق الخاضعة لسيطرته كمدينة جسر الشغور وأريحا بعد أن كانت هذه المناطق مراكز تجارية توزع البضائع والمواد الغذائية بكافة أصنافها للكثير من القرى والنواحي المحيطة بها، فحصر النظام دخول وخروج الناس في كل مدينة يسيطر عليها عبر معبر واحد هذا المعبر هو عبارة عن طريق حقلي ضيق مفتوح للمشاة فقط والذين يخضعون لتفتيش شخصي دقيق كما تفتش الأغراض التي يحملونها أما المركبات التي تنقل البضائع من وإلى مناطق النظام عليها التوجه إلى مدينة إدلب حيث هناك معبر وحيد يسمح بمرور السيارت والتي تخضع أيضا للتفتيش عدة مرات على الحواجز المتواجدة عن مدخل المدينة.

أحد حواجز النظام في المدينة

النظام يعطل الحركة التجارية في إدلب بعد أن عزل الريف عن المدينة

مر عيد الفطر مأساوياً على تجار مدينة إدلب الذين كانوا يعولون على فترة العيد التي يعتبرونها موسماً تجاريا، ولكن هذا الموسم كان مخيبا لآمالهم فالحركة التجارية كانت معدومة وكان إقبال الناس مقتصرا على الطعام وبعض الحوائج الأساسية الأخرى، أما أصحاب محلات الألبسة والأقمشة والأحذية والمفروشات كان يشتكون من ضعف الحركة التجارية والكثير منهم أرجع هذا الضعف لعدم قدرة الناس على القدوم من المناطق المحررة التي كانت المدينة تعتمد عليهم بشكل أساسي، والحال ذاته في جسر الشغور التي هجرها أغلب تجارها بسبب الضيق المادي التي أصابهم بعد أن تعطلت الحركة التجارية في المدينة بسبب الصعوبات التي فرضها النظام على الذين يريدون دخول المدينة والخروج منها، ففي جسر الشغور معبر وحيد قرب مؤسسة المياه في المدينة يصل هذا المعبر المدينة بالريف المحرر نصب أمام المعبر حاجز ضخم وفرز له عدد كبير من العناصر لكي يقوموا بتفتيش الداخلين والخارجين، الصعوبات التي فرضها الضابط المسئول عن المعبر والذي يدعى (أبو حيدر) جعلت الكثير من الناس تذهب إلى القرى المجاورة للحدود التركية كسلقين ودركوش لكي يشتروا حاجاتهم، ولم تعد المدينة تستفيد تجاريا من سكان الريف الغربي الذين مازالت قراهم تحت سيطرت النظام والذين ينتمون لأقليات طائفية ولكن تخوفهم من طريق السفر المكشوف على قناصة المعارضة حال دون دخولهم المدينة، ويقول مصطفى وهو تاجر أحذية في جسر الشغور «كنت أعتمد بشكل أساسي على الزبائن التي تأتي من الريف ولكن هذه الزبائن لم تعد تأتي إلى جسر الشغور بسبب الصعوبات التي يواجهونها على حواجز النظام، فتراجع عملي بشكل كبير، فقررت أن أصفي البضائع التي بقيت عندي لكي أغير مصلحتي التي لم تعد تكسبني حتى قوتي اليومي وسوف أقوم ببيع المواد الغذائية والمنظفات التي لا يمكن للناس أن يستغنوا عنها».

أن التشديد الأمني الذي يطبقه النظام على أبناء الريف المحرر في إدلب أثناء دخولهم للمناطق الخاضعة لسيطرة النظام جعل الكثير من أبناء الريف يتجنبون السفر لمناطق النظام، فمن يريد دخول مدينة إدلب وجسر الشغور وإريحا عليه أن يجب عن أسئلة التي سوف يتعرض لها على حواجز التفتيش ويجب ان يدلي عن وجهته وسبب مجيئه، كما تحاول قوات النظام أن تأخذ معلومات من سكان المناطق المحررة عن الوضع الأمني في قراهم وعن الفصائل التي المتواجدة لديهم، كما يسأل كل شخص عن أقربائه المنتمين للجيش الحر، فلا يكاد يمر يوم ولا تعتقل فيه حواجز النظام شبان من أبناء المناطق المحررة بتهم متعددة إلا أن آل الوضع ليصبح كل شخص ينتمي لعائلة معارضة للنظام هو مطلوب لأفرع الأمن وكل شخص لديه أخ أو أبن يقاتل في وجه النظام عليه أن يحاسب أو يعتقل حتى لو بضعة أيام لكي يأخذ منه النظام معلومات عن أقربائه، هذه العقبات التي وضعها النظام في وجه أبناء ريف إدلب المحرر جعلت التنقل معدوما بين الريف المحرر والمدينة وشلت الحركة الاقتصادية.

تجار الساحل يتحكمون بالأسعار في سوق إدلب

الصعوبات التي يواجهها أهالي إدلب أثناء تنقلهم بين المناطق الخاضعة لسيطرة النظام والمناطق المحررة جعلت الكثير من أبناء المناطق المحررة يمتنعون عن دخول مناطق النظام إلى أن أصبحت حركة التنقل بين مناطق النظام ومناطق المعارضة شبه معدومة، انعدام حركة التنقل أثر بشكل مباشر على الحركة الزراعية والوضع المعيشي للمزارعين حيث معظم المزارعين كانوا يسوقون محاصيلهم في سوق هال مدينة إدلب أو سوق هال جسر الشغور ولكن الصعوبات الكثيرة التي باتت تواجه المزارع حين دخوله مناطق النظام أجبرته على بيع محاصيله في محافظات أخرى وبأسعار ضئيلة فأصبح المزارع اليوم يتحمل مصاريف أضافية أصبحت عبئا كبيرا عليه كأجور الشحن المرتفعة، وبسبب عدم قدرة مزارعي إدلب على إدخال المحاصيل الزراعية واللحوم والألبان إلى مناطق سيطرة النظام أضطر التجار في مناطق سيطرة النظام إلى الاعتماد على منتجات الأراضي الزراعية في المناطق الساحلية والريف الشمالي لمدينة حماه والتي تصل إلى مدينة إدلب بأسعار مرتفعة مقارنة عن مع الأسعار التي تباع فيها في الريف المحرر لمدينة، ويقول عبادة وهو تاجر في سوق هال إدلب «أصبحنا مضطرين لان نشتري من تجار المناطق الساحلية وبالأسعار التي يريدونها كونهم الوحيدين الذين يستطيعون إدخال محاصيلهم إلى مناطق النظام في إدلب، فانا أشتري اليوم كيلو البندورة الساحلية ب25 ليرة وهي تباع في ريف المدينة ب 10 ليرات كما هو الحال للعديد من الخضروات التي نشتريها بضعف السعر التي تباع فيه في ريف إدلب».

تجار المناطق المحررة اكبر المستفيدين من عزل مناطقهم عن مناطق النظام

أصبحت المناطق المحررة في محافظة إدلب أكثر نشاطا وحيوية واقتصادية من مناطق النظام وتحسنت الحركة الاقتصادية فيها لسهولة التنقل بين المناطق المحررة ولم تعد المناطق المحررة تعتمد على مناطق النظام في شراء البضائع والسلع، فحلت البضائع التركية محل البضائع السورية التي كانت تنتج في مناطق النظام أو التي كانت مؤسسات الدولة تنتجها كالألبسة والأحذية والمنظفات وبعض أصناف المواد الغذائية، فبعد إقلاع أغلب أهالي الريف عن النزول لمناطق النظام زادت الحركة التجارية وفتحت الكثير من المحلات التجارية في القرى، ففي عيد الأضحى شهدت المناطق المحررة إقبال كبيرا على الشراء، ففي مدينة سلقين المحررة كانت الأسواق تشهد حركة بيع وشراء قوية، هذه المدينة التي تخدم اليوم الكثير من القرى المحيطة بها، ويقول عبد الجبار وهو صاحب محل لبيع المواد الغذائية «بعد ما فرض النظام صعوبات كثيرة على أبناء المناطق المحررة الذين يريدون دخول مناطق سيطرته أصبح يأتي إلي زبائن من ريف مدينة إدلب ومن ريف جسر الشغور وأريحا ومنهم تجار يشترون بالجملة».

يشتكي الكثير من التجار والمزارعين في المناطق المحررة من الحواجز الكثيرة التي تعرقل تسويق بضائعه ومزروعاتهم، كما يشتكي تجار الريف الشمالي في محافظة إدلب من بعض الحواجز التي تدعي انتمائها للجيش الحر والتي توقف السيارات المحملة بالبضائع والخضروات وتفرض على اصحابها دفع المال لكي يسمح للسيارة بالعبور، ولكن الحملة التي قامت بها بعض

الكتائب الإسلامية لكي تزيل هذه الحواجز عادت بالفائدة على الوضع الاقتصادي في المناطق المحررة كما أصبح من السهل على التجار التنقل بين المناطق المحررة، ويقول أبوم محمد وهو صاحب مدجنة في حبل الزاوية «كانت الحواجز عبئاً كبيراً علينا وبسبب المبالغ التي كنت أدفعها للحواجز اضطررت لكي أرفع السعر البيض الذي أبيعه لكي لا أخسر، ولكن بعد أن أزيلت هذه الحواجز أصبح ربحي اكبر وأصبحت أبيع البيض بسعر أقل».

السفر للمناطق المحررة في إدلب جريمة يحاسب عليها النظام

يمنع النظام سكان المناطق التي يسيطر عليها من الذهاب إلى المناطق المحررة كما إن السفر إلى محافظات أخرى خاضعة لسيطرة النظام ليس بالأمر السهل على أهالي إدلب، فعلى ابن إدلب الذي يريد السفر إلى محافظة أخرى عليه تبرير سبب سفرة وتقديم حجة يجب أن يقتنع بها الضابط المسئول عن الحاجز الموجود عند مدخل المدينة كالسفر بداعي العلاج أو لقبض راتب من أحدى مؤسسات الدولة بينما الموظفون وطلاب الجامعات يسمح لهم السفر بمجرد أبراز هوياتهم الجامعية أو الوظيفية، ويعتبر الخروج من مناطق النظام في إدلب سهل عن طريق المعبر الموجود على طريق إدلب بنش كون هذا المعبر يجتازه يوميا أعداد كبيرة من الناس ولا يستطيع الحاجز مراقبة جميع المسافرين، أما الخروج من باقي المناطق الخاضعة لسيطرة النظام في إدلب كجسر الشغور وأريحا شبه مستحيل، كما قامت حواجز النظام بمنع جميع سكان مناطقها من السفر خلال أيام العيد لأي منطقة كانت خوفا من دخول هؤلاء الناس إلى الأراضي التركية كون الحكومة التركية سمحت للسوريين بدخول أراضيها عبر المعابر الرسمية على الهوية الشخصية ودون أبراز جواز السفر، ويقول أبو علاء وهو من سكان جسر الشغور «قررت الخروج من جسر الشغور لكي أقضي أنا وأسرتي أيام العيد في قريتي حارم الخاضعة حاليا لسيطرة الجيش الحر وعندما توجهت لحاجز النادي الموجود عن مدخل المدينة منعني الضابط من الخروج وقال لي إنني لا استطيع الخروج حتى ينتهي العيد وأمرني بان أرجع إلى منزلي دون أن أناقشه، وبعد أن انتهى العيد تمكنت من السفر وبعد أن قضيت يومين في حارم عدت إلى جسر الشغور فأوقفني حاجز المياه وهو الحاجز المسئول عن الداخلين إلى المدينة واحتجزني لمدة ثلاث ساعتان لكي يحقق معي، فسألني احد الضباط عن المكان الذي كنت فيه وطلب مني أن أعطيه أدلة بأنني لم أكن في تركيا، وعندما رأى الضابط زوجتي وأولادي خائفين عطف علينا وتركنا نذهب».

محاولة جديدة للنظام لفرض الخدمة العسكرية على الشباب السوري

دمشق - أنليل فارس

أصدر بشار الأسد يوم الثلاثاء مرسوماً ينص على تعديلات خاصة بقانون الخدمة العسكرية الإلزامية، أهمها إقرار فصل العاملين في الدولة الذين يتخلفون عن الالتحاق بالخدمة الاحتياطية.

وقال حقوقيون، لـ«سوريتنا»، «لم يحصل النظام عقب إصدار العفو العام الأخير، والذي شمل الفارين والمتخلفين عن الخدمة العسكرية، النتائج التي كان يرجوها، رغم أنه أشاع في المجتمع عزمه تسريح الدورة 102، التي قضى عسكريوها نحو خمس سنوات في الخدمة العسكرية، فأصدر تعديلا لقانون الخدمة العسكرية، أهم ما جاء به فرض عقوبة بحق المكلفين الذين يتخلفوا عن الالتحاق بخدمة العلم الإلزامية أو الاحتياطية وهي إنهاء خدمتهم في الدولة بقرار من رئيس الوزراء بناء على اقتراح من وزير الدفاع، وهذا يصب في محاولاته لإجبار الشباب على الالتحاق بصفوف القوات النظامية.

وأضافوا أن «النظام من جهة أخرى قدم عبر التعديلات الجديدة مكافأة لمن يلتحق بصفوف القوات النظامية وهي نص يلزم الجهات العامة بإعادة العاملين المتعاقدين مع الدولة إلى عملهم، وذلك رغم النصوص التي قد تحول دون ذلك، كما يتقاضى بحسب المرسوم العاملين في الجهات العامة الذين يستدعون للخدمة الاحتياطية كامل المزايا المقررة لأمثالهم من القائمين على العمل».

ولفتوا إلى أن «النظام منذ بداية الأحداث في البلاد، عمد إلى ترغيب الشباب وعائلاتهم بالالتحاق بالخدمة العسكرية، عبر رفع رواتبهم الشهرية، ووعدهم بتوظيفهم في حال أنهوا خدمتهم العسكرية، أو توظيف أحد ذويهم في حال قتلوا».

وبينوا أن «التطور اللافت في التعديلات أنها نصت على إعادة العاملين في شركات ومؤسسات القطاع الخاص، والتي يزيد عدد عمالهم عن 50 عامل، إلى عملهم واعتبار مدة الخدمة الإلزامية أو الاحتياطية داخلة في حساب التأمينات الاجتماعية في حال سدد العامل العائدات التأمينية المترتبة على العامل ورب العمل».

وأوضحوا أن «معظم عمال القطاع الخاص يعانون من عدم استقرار وهدر للحقوق، وهم غير مسجلين في التأمينات الاجتماعية، وموقعين على استقالاتهم منذ أول يوم لهم في العمل، لذلك قلة قليلة من يستطيعون إثبات عملهم، كما أنه لم يوضح آليات عودتهم في حال رفضت المؤسسة إعادتهم، وهناك سوابق ورغم وجود أحكام قضائية، لكنها لم تطبق».

ورأوا أن «تخفيض البدل النقدي للمكلف المقيم خارج القطر ليصبح 8 آلاف دولار أمريكي بدلا من 15 ألف دولار، وتخفيض مدة إقامته خارج القطر المقررة لتصبح 4 سنوات بدلا من 5 سنوات، في حين تمت زيادة البدل النقدي للسوري المولود خارج القطر والمقيم في الخارج إقامة دائمة حتى بلوغه سن التكليف لتصبح 2500 دولار بدلا من 500 دولار، ما هي إلا محاولة لتحصيل قطع أجنبي من المغتربين، عقب انخفاض أعداد دافعي البدل جراء عدم قدومهم إلى البلاد، ومنهم من أخرج عائلته خارج سورية أو هم في المناطق الخارجة عن سيطرة النظام».

وتابعوا أن «التعديل فرض تعويضا نقديا على كل من تجاوز السن المحدد بالتكليف بالخدمة الإلزامية ولم يؤديها لغير أسباب الإعفاء المنصوص عليها في القانون، ليصبح 8 آلاف دولار أو ما يعادلها بالليرة السورية (نحو 1.3 مليون ليرة)، وذلك بدلا من حسابه على أساس الراتب الشهري للرتبة المقررة له فيما لو أدى الخدمة الإلزامية (ما لا يتجاوز 270 ألف ليرة)»، معتبرين أن «هذا يندرج تحت باب الضغط على الشباب».

وأوضحوا أن «التعديلات ألغت التأجيل الإداري إذا كان للمكلف أخوين أو ثلاثة في الخدمة العسكرية، حيث كان ينص على أن يقبل تأجيل أحد الأولاد لوالدين أو لأب أو لأم من الخدمة إذا كان لهما ولدان أو أكثر في الخدمة العسكرية الفعلية، على ألا يتجاوز عدد الموجودين فيها الثلاثة أولاد، أصبح بحسب المرسوم الجديد يقبل تأجيل ولد واحد إذا كان يخدم في الجيش ولدين أو أربعة أولاد، وتأجيل ولدين إذا كان لديهم من خمس إلى ثمانية أولاد في الخدمة، ويستثنى ثلاثة أولاد إذا كان يخدم في الجيش تسعة أولاد أو أكثر، كما يقبل تأجيل ولد واحد إذا كان جميع أخوته في سن التكليف يؤدون الخدمة العسكرية».

وذكروا أن المرسوم الجديد نص على استيفاء كفالة مادية لكل من هم تحت سن الشطب، وسن الشطب هو سن الخدمة الاحتياطية ويختلف بحسب الرتب العسكرية. في حين يعفى من تقديم أي كفالة، شريطة الحصول على موافقة سفر مسبقة من مديرية التجنيد العامة أو من تفوضه بذلك قبل مغادرتهم الجمهورية العربية السورية، كل من العاملين المدنيين الموجودين في الخدمة باستثناء الملزمين بخدمة الدولة، والموفدين من قبل الحكومة للدراسة أو التخصص أو بمهمة رسمية، والمعفين من خدمة العلم وفق أحكام هذا القانون، والذين أدوا الخدمة الإلزامية، والمتقاعدين، والمغتربين القادمين للجمهورية العربية السورية بقصد الزيارة.

وتعاني القوات النظامي من نقص شديد بالعسكريين على مختلف الرتب والاختصاصات، في حين يمتنع مئات الآلاف من الشباب السوري من الالتحاق في الخدمة الإلزامية، وخاصة عقب الضربات التي تلقاها مؤخرا في حقل الشاعر والفرقة 17 واللواء 93، وانتشار العنف وعدم ظهور بوادر حل يوقف سفك دماء السوريين ويحقق مطالبهم بالحرية والكرامة.

نبلاء انتهازيون أنانيون هاربون وصامدون
فنانو سوريا التشكيليون "1"

■ دمشق – حمزة السيد

حين قامت ثورة في فلورنسا في القرن الخامس العشر، فرّ من المدنية باتجاه فرنسا معظم الفنانين التشكيليين الكبار ومن يعرفون في تاريخ الفن باسم «المعلمين»، إذا غادر ليوناردو دافنشي عاصمة الفن في العالم باتجاه باريس وكذلك فعل مايكل انجلو، وبقية كبار فناني النهضة الايطالية آن ذاك، ولا يوجد أي أثر يسجل موقف لهؤلاء من أحداث مدنيتهم التي تعرف أيضاً باسم البندقية، هم رسامو بلاط وكنيسة بامتياز وهذا ليس انتقاصاً من قيمتهم، بل واقع عاشه النحاتون والمصورون في ذلك العصر الذي لم يكن الفن فيه قد بات أكثر حرية وأكثر التصاقاً بسوق المال كما هو اليوم، ورغم غياب الأثر والرأي فيما عاشته ايطاليا في ذلك الزمان إلا أن ما نُقل عن مايكل انجلو مثلاً يقول أنه لم يكن راضياً عن الثورة في مدينته.

بعد أربعة قرون من ذالك التاريخ، فرّ بابلوا بيكاسو ذائع الصيت باتجاه باريس أيضاً حين اندلعت الحرب الأهلية في اسبانيا، وأطلق هو على ذلك اسم المنفى الاختياري، إلا أن بيكاسو الذي تعرفه العامة بالمُشخبر، لم يترك فرصة واحدة إلا وسجل فيها موقفه من أحداث اسبانيا، ربما أكثرها شهرة لوحته التي رسمها في ليلة واحدة «جورنيكا» المستوحاة من قصف مدينة جورنيكا (الواقعة في إقليم بسكاي بشمال إسبانيا) الذي تعرضت له في 26 إبريل 1937 أثناء الحرب الأهلية الإسبانية، من قبل طائرات ألمانية وإيطالية كانت تساند قوات القوميين الإسبان، مما أسفر عن وقوع مئات القتلى، طبعا يتهم الرجل أيضاً بأنه استثمر في الدماء لينال شهرة عالمية، فلولا الحاجة السياسية له، لما كان بيكاسو على ما هو عليه اليوم من اسم يجول في العالم كرسام كبير.

بين النُبل والانتهازية

مع انطلاق الحراك الشعبي السوري عام 2011 لم يكن شهر آذار من ذاك العام قد انتهى حتى أصيب قطاع الفن التشكيلي السوري بنكسة كبيرة، فالارتباط الوثيق الذي ظهر بين الفنان والصالات الكبيرة التي تدير عملية اقتصادية للوحة والتي كانت ظهرت منذ مطلع الألفية في سوريا، جعلت القطاع الكمالي هشاً ومتأثراً بأي هزة، هزة جعلت كبرى الصالات تغلق أبوابها، ومع نهاية 2011 كانت كبرى الصالات كأيام وتجليات قد أغلقت بالفعل، لكن هذا هو حال المال في أي قطاع كان.

حسناً لنتفق على أن الفنان التشكيلي فيه من الانتهازية الكثير، ربما السبب هو مجال العمل وطبيعة السوق، وربما السبب هو أمزجة الفنانين المتقلبة، ورما يكون السبب هو الحكم المطلق الذي نطلقه نحن عليهم من بعيد، لكن في سوريا قد لا يكون الجميع انتهازيون ولكنهم ليسوا بنبلاء أيضاً.

تنويه

ليس بمطلوب من أي فنان تشكيلي أن ينقل الواقع أو يصوره أو يعكسه أو يخاطبه، هذه مهمة مقيدة للحرية وعقيمة المعنى وسيئة النتيجة، الكلمات السابقة تعود لاتجاه فني هو الغالب اليوم في العالم، بينما يرى اتجاه آخر أن على الفن التشكيلي أن يكون ملتصقاً بالحدث وبالإنسان، وأن يكون ناقلاً أميناً لما تمر به البشرية من تحولات وتقلبات، السياسيون بطبيعة الحال يطلبون موقفاً واضحاً من الفنان كي يتم استخدامه ضمن معاركهم، فيما لم يعرف تاريخ الفن اسماً كبيراً إلا وكان مستقلاً إلى حد كبير في عمله وتكوينه وإنتاجه، بينما بقي فنانو السلطة نكرات، أو ماتوا قبل موتهم بسنوات.

آدم المنتشي بذاته

قلائل من يعرفون اسم سبهان آدم، القلائل هنا تعود على عامة الناس، الرسام صاحب اللوحة المبهرة، لديه من الشهرة العالمية في بورصات الفن ومزاداته في دبي ولندن ما يكفي لأن يجعل منه مليونيراً في عصر قد لا يجد فيه التشكيلي قوت يومه، وآدم هو من أرسى في سوريا فكرة الفن للبيع والبيع فقط، وبعيداً عن لوحته الاستثنائية والمتمردة، فإن آدم لم يسجل موقفاً واضحاً من أحداث سوريا طوال ثلاث سنوات، الرجل المكتفي بذاته في كل شيء، اكتفى بالمراقبة، صحيح أنه لم يغادر سوريا ولا يزال يرفض الفكرة، إلا أنه يرفض أن يوظف لوحة واحدة له لخدمة أي موقف يؤيد أو يدين، يشتم أو يمدح، يقترب أو يبتعد من الحدث، هي عادة آدم الذي يرفض حتى أن يقال عن لوحته بأنها سورية، فالرسام والمصور يرى أنه يتخطى القوميات والأعراق الطوائف والأديان، عابراً الزمن يقول عن نفسه، ومع هذا، فإن أكثر ما يعرف عنه هو وحدته المزمنة والاختيارية، وإذا كانت الانتهازية صفة لا تليق بآدم، فالأنانية هي هو، فحين يقول أنه عالم مستقل بذاته، عليك أن لا تتوقع من آدم أي رد فعل على أي فعل حتى لو كان نهاية العالم.

بينما يرفض آدم مغادرة سوريا لأنه لا يرتاح إلا فيها كما يقول، يتابع الرسم في دمشق بدلاً من الحسكة، ويبيع لوحاته وإن كان بوتيرة أقل بكثير مما كان معتاداً لدول عربية وغربية، في لوحته التي كانت قبل 2011، تصور كائناً مهزوماً ومكسوراً، كائناً شوهته الدنيا وجعلته عاجزاً عن الفهم، المسخ الجميل الذي يصوره آدم وهذا وصف أدونيس لشخصيات آدم كتبه عام 2010، تحول مع ثلاث سنوات من الحرب إلى كائن أكثر حضارة، فحمل السيكيفون وعزف على البيانو، ارتدى التكسيدو، وعرف الحذاء بعد أن كان حافياً لأكثر من عشر سنوات.

الفنان الحر وهذا تعبير يطلقه آدم على نفسه، لم يتتلمذ على يد أحد، واكتشف الرسم بذاته ويديه وعقله، لم يكن له معلم ولا يريد له تلاميذ، هو حالة فريدة ونادرة التحقق، لم يجبر على اتخاذ موقف سياسي هو لم يفعل من تلقاء نفسه، قليل الظهور وكثير الاختباء خلف لوحته.

الخائف من نفسه

تمكن النحات أكثم عبد الحميد من بناء علاقات عامة مع أجهزة الأمن في سوريا، وضمن ولاء عدد من الفنانين الشباب الذي تخرجوا من المعهد الذي كان من مؤسسيه في وزارة الثقافة، مهد الفنون التطبيقية، عبد الحميد تمتع منذ عام 2002 ببعض العلاقات مع فنانين من حول العالم، والذين تَعرف عليهم في ملتقيات النحت التي أقامها في سوريا أو التي دعي إليها في أوربا والعالم العربي، ورغم أن علاقاته الفنية اقتصرت على فنانين يعرفون باسم فناني الملتقيات الذي لا عمل لهم إلا أنجاز أعمال نحتية بأحجام كبيرة من الحجر عبر سفر متواصل حول العالم، إلا أن هذا النوع من العلاقات التي عززها عبد الحميد أمنت له بعض من عمل، ومن ثم أمنت لهم فرصة لإقامة ملتقى نحت على الحجر في اسبانيا لفنانين سوريين على مدار أربعة أعوام، كان مكتفياً فنياً ويبدو نجمه أكثر تصاعداً، وإن كان عمله لا يتطور بذات الوتيرة.

مع حراك البلاد، كان أكثم عبد الحميد مديراً للفنون الجميلة في وزارة الثقافة، المنصب الإداري والفني والمعنوي جعل عبد الحميد أكثر سيطرة على مفاصل الفن الرسمي في البلاد وبالذات الملتقيات، وهذا همه الأكبر.

في عام 2012 قرر عبد الحميد تحت

إحدى لوحات سبهان آدم

ضغوط كما قال في جلسات خاصة أن ينظم ملتقى للنحت على الخشب بدلاً من الحجر كما هو معتاد، أقام الملتقى في قلعة دمشق، وقد أنجز جهداً هائلاً لإقناع فنانين من أوربا والعالم العربي للقدوم إلى سوريا التي كانت تحترق على شاشات التلفزة، نجح عبد الحميد في أقناع عشرة فنانين، ونظم الملتقى واختتمه، في ليلة الختام، زار شاب وفتاة الفنانين الأجانب في محل إقامتهم في فندق في دمشق، بعد منتصف الليل، وأعطوهم أقراصاً مضغوطة عليها صور وفيديوهات من الحولة والبيضة، صور لمجازر تتهم بارتكابها القوات الحكومية، في اليوم التالي وفي مطار دمشق الدولي، وجد الأمن أحد الأقراص مع فنان مصري، سافر الفنانون وطلبت المخابرات الجوية عبد الحميد لتحقيق.

ست ساعات أمضاها عبد الحميد مع ضابط في الجوية، رفض فيها اتهام أحد على عكس رغبة المحقق المُصر على تزويده بأسماء، بعد شهر من تلك الحادثة، بدا اليأس واضحاً على محيى النحات، الذي لم يوفر نصيحته بالسفر لكل من يصادفه في دمشق، كان متأكداً من انهيار كل شيئ، قناعته كانت واضحة بأن النظام سيسقط، فاستقال من منصبه الذي أمضى عمراً يحلم به، وغادر مع عائلته إلى إسبانيا، ومنها إلى تركيا، ثم عاد إلى دمشق نهاية عام 2013، ليجد نفسه يبحث من جديد عن ملتقيات ينظمها أو يدعى إليها.

تتلمذ عبد الحميد على يد النحات السوري سعيد مخلوف، الذي برز اسمه مطلع سبعينات القرن الماضي، ولقب بشيخ النحاتين السورين، فمخلوف كما هو واضح من الاسم هو خال حافظ الأسد، أعماله ولا شك شاهدها كل سوري شاء أم أبى وإن جهل باسمه، إذ تُركت له مدنية المعارض القديمة بدمشق ليزينها بما شاء من الخامات، ولا يزال بعض منها واضحاً للعيان على جدران مسرح دمشق الدولي في ساحة الأمويين.

عملياً لا تتوقع من نحات كأكثم عبد الحميد عملاً يحمل أي مزايا جديدة، فالمرأة التي تتلوى كغصن الزيتون حتى لو ظهرت على حجر رخام من كيرارا، هي ليست المرأة التي اعتقلت أو قتلت أو قنصت أو اختطفت، لا يربط عبد الحميد بين أي حدث آني وبين تكويناته النسائية، مهما علا الفيض، بكل وعيه لا يشبه عمله الواقع ولا ينتمي إليه.

رحلة العودة من لبنان إلى سوريا ألغيت على حاجز المصنع

■ مها الخضور

لم تؤثر سايكس بيكو كثيراً على العلاقات بين سوريا ولبنان كشعبين، ولم تُرسّم الحدود بينهما رسميا حتى وقت قصير جدا. لذا اعتاد السوريون على استقبال إخوتهم وأقاربهم اللبنانيين في أزماتهم وحروبهم الكثيرة، على مر العقود الماضية، وكان من الطبيعي أن يلجأ عدد كبير من السوريين، في محنتهم التي ما تزال تتفاقم كل يوم، إلى لبنان الجار والشقيق.

منذ اندلاع العنف في سوريا منتصف العام 2011 بدأ السوريون بالنزوح صوب القرى والبلدات اللبنانية الحدودية، لكن آمال الكثير من اللاجئين تحطمت، بعد وصولهم إلى الكثير من البلدات والمدن اللبنانية التي يتحكم المزاج السياسي لأهلها بموقفهم من اللاجئين.

لقد انقسم لبنان على نفسه إزاء الوضع في سوريا، ففي حين وقف بعض اللبنانيين إلى جانب الثورة السورية، فضلت الحكومة اللبنانية وفريق كبير من السياسيين هناك، الوقوف إلى جانب النظام السوري بشكل مباشر كميليشيا حزب الله، أو غير مباشر عبر سياسة النأي بالنفس كما فعلت وتفعل الحكومة، رغم كل القتل والتدمير الذي مارسه النظام ضد شعبه. كما رفض لبنان منذ البداية، الاعتراف باللاجئين السوريين، وبرر انحيازه للنظام تحت شعار النأي بالنفس عن الخضات الإقليمية، وهذه حقيقة يدركها تماماً، السوريون الذين عبروا الحدود بتجاه لبنان. وقد قدرت الأمم المتحدة والمفوضية السامية لشؤون اللاجئين، التي تقدم بعض الرعاية وبالحدود الدنيا للاجئين السوريين في لبنان، أعدادهم بحوالي مليون وعشرين ألفا حتى نهاية الشهر الماضي، يعيش أغلبهم في ظروف صعبة جدا ولا يمكن وصفها بالإنسانية، حسب تعبير المفوضية.

لم يلق اللاجئون السوريون في لبنان أي شكل من أشكال الدعم على المستوى الحكومي، وإنما رعت بعض المنظمات الدولية عددا قليلا منهم، وتُرك الباقي لتدبر أموره ومواجهة مصيره بنفسه. وقد نشرت العديد من الصحف والمواقع الالكترونية، أخبار انتحار بعض السوريين في لبنان، بسبب سوء المعاملة من قبل مَن كانوا قبل وقت قصير جدا أشقاءهم. كما أن الحكومة اللبنانية كرست جهودها لتقييد حركة السوريين في لبنان، وبشكل يتنافى تماما مع القوانين الدولية، سواء في المطارات أو المعابر الحدودية، أو في منح الوثائق الضرورية، كشهادات الميلاد للمواليد الجدد وغيرها.

ليس هذا فحسب، بل إن بعض البلديات لم تخجل من فرض حظر التجول على السوريين خلال ساعات محددة من اليوم!. وأما حكاية الطفل خالد، الذي عذب على أيدي عائلة لبنانية شيعية، وتم تصويره للتلذذ بمعاناته، فهي ما تزال تؤجج مشاعر الإحباط والحزن لدى السوريين، الذين فتحوا بيوتهم ومزارعهم وتبرعوا بطعامهم لإخوتهم اللبنانيين، بدل المرة مرات، وهو موقف يلخص وبشدة، معاناة السوريين في لبنان.

"أم خالد"، نازحة سورية من مدينة حمص وهي تعيش مع عائلتها بالقرب من مدينة طرابلس، تقول: "هربنا إلى لبنان بسبب الموت الذي ملأ كل مكان في حمص. كان زوجي مصابا لكني لم أستطع إسعافه إلى مشفى لبناني، بسبب الخوف من اختطافه من المشفى على يد المناصرين للنظام لتسليمه، وها نحن هنا منذ أكثر من سنتين، وكل يوم تزداد فيه مخاوفنا، صرنا نشعر أن أغلب اللبنانيين لا يرغبون بوجودنا هنا، وبمجرد أن تعرّف عن نفسك أو تفضحك لهجتك، تشعر بنفور اللبناني منك".

بسبب هذه الأوضاع اللاإنسانية التي يعاني منها اللاجئون السوريون في لبنان، وبسبب اندلاع أحداث العنف الأخيرة هناك، لم تجد بعض العائلات السورية حلاً آخر، سوى العودة إلى قراها التي تتعرض للقصف بشكل يومي.

يوم الخميس الماضي، شهدت منطقة المصنع على الحدود السورية اللبنانية ازدحاما شديدا، حيث تقاطر إلى هناك حوالي 1700 لاجئ سوري، بينهم ما يقارب 500 مسن و400 طفل وسيدة، ممن قرروا العودة، ليصطدموا بقرارات حكومتهم السورية، بمنعهم من الدخول إلى بلدهم، بحجة أن بعضهم تربطه علاقات قربى مع بعض "الإرهابيين" المطلوبين للنظام، تارةً، أو بحجة أن بعضهم لا يمتلك الوثائق الرسمية اللازمة لعبوره تارة أخرى. بهذا يرتكب النظام السوري انتهاكا فظيعاً جديداً بمنع مواطنيه من العودة إلى بلدهم الأصلي، متذرعا بعدم امتلاكهم للوثائق الرسمية.

في الأحوال الاعتيادية، يستطيع هؤلاء العودة من الطرق الجبلية التي خبروها جيدا قبل الحرب، ولكن ضخامة أعدادهم هذه المرة اضطرتهم لتشكيل قافلة تسير باتجاه المعبر النظامي بين البلدين (نقطة المصنع)، فهم وبهذا العدد، عاجزون عن التخفي أو التواري عن أعين دوريات الأمن اللبنانية والسورية المنتشرة على جانبي الحدود. وقال مصدر في الحكومة اللبنانية، إنهم تواصلوا مع نظرائهم السوريين لحل مشكلة اللاجئين العائدين إلى ديارهم، وقبول عودة العائلات الأخرى التي ترغب بالعودة، لكن هذه الأخيرة أيضا تفتقد للوثائق الرسمية، بسبب خروجهم في ظروف غير اعتيادية من حرب دمرت بيوتهم، ولربما التهمت نيرانها تلك الوثائق. وأكد المصدر أن على الحكومة السورية استقبال مواطنيها الراغبين في العودة إلى ديارهم، لأن الوضع في لبنان يتجه نحو منعكسات خطيرة، ولم يعد لبنان يحتمل هذا العدد الكبير من اللاجئين السوريين الذين تجاوز عددهم ربع عدد سكان لبنان.

وفي وقت سابق كانت الحكومة السورية قد عارضت إنشاء مخيمات لإيواء النازحين السوريين في لبنان، حيث قال السفير السوري في لبنان علي عبد الكريم علي، في تصريح صحفي الشهر الماضي، بعد محادثاته مع وزير الخارجية اللبناني جبران باسيل: "نحن ضد بناء مخيمات للاجئين السوريين، لأنهم سوف يعودون إلى بلدهم سوريا التي تتسع لجميع أبنائها". لكن السيد السفير لم يفته وهو يتشدق برحابة صدر النظام أن يذكر بمحاربتهم للإرهاب. لقد حكم النظام السوري على معارضيه وعائلاتهم بالموت في سوريا، ولم تتردد الحكومة اللبنانية التي يسيرها حزب الله، في التضييق على من استطاع الفرار إلى أراضيها، لا بل إنها تنسق وتخطط مع نظيرتها السورية، لمستقبل هؤلاء اللاجئين، متناسية أن من تشاركهم الرأي والتنسيق هم ذاتهم القتلة، الذين شردوا هؤلاء اللاجئين وتسببوا في محنتهم الحالية، لتطبق مقولة السوريين الشهيرة "حاكمك ظالمك".

سوريون على حاجز المصنع على الحدود مع لبنان

داعش ودولة التسلط
كيف تنظر الرقة إلى حاكمها؟

■ الرقة - ناصر المحمود

بعد سيطرة تنظيم الدولة الإسلامية على ثلث مساحة سوريا، ومناطق واسعة في العراق، وضمناً ما تشتمل عليه هذه المناطق من ثروات وموارد طاقية، وفرض قوانينه على مناطق النفوذ مستعينا بالدين وبجنوده القساة المدرَّبين، نجح تنظيم الدولة الإسلامية، على ما يزعم، في إقامة دولة.

أم أنها كانت مجرد سلطة تحكم قبضتها على مناطق مسيطر عليها عسكرياً؟ وهل يمكن لهذه "الدولة" أن تستمر في ظل رفض حكومات الإقليم والقوى الدولية لها؟

أيمكن للتنظيم أن يقيم دولة فعلاً؟ حتى لو فرضنا جدلا اكتسابه للحاضنة الشعبية التي يرى كثيرون أنه يفتقدها.

أسئلة كثيرة، تطرح نفسها على السوريين الذين باتوا محاصرين على كل الأصعدة، ودائما بين نيران الخيارات الصعبة.

بين الدولة والسلطة

لأن من يعيش الواقع ويلمسه، يكون ببساطة أقدر على تحديد نوع السلطة المطبقة عليه، لأن لديه المقاربة الأقرب للحقيقة، لذلك قمنا بجولة ميدانية استطلعنا فيها آراء الناس، في مناطق ريف الرقة الواقعة تحت سيطرة تنظيم الدولة الإسلامية في سوريا.

(م.س) وهو مدرِّس، يرى أن الحقيقة السياسية الوحيدة التي استمرت منذ عام 1958 (في إشارة إلى الوحدة مع مصر) هي السلطة. يقول: "منذ هيمن قرار الفرد لم يعد هناك إلا سلطة الفرد وعصابته المستفيدة، وتنظيم الدولة الإسلامية يسير بقرار الفرد والعصابة أيضا، لكن بلباس آخر.

أحمد، وهو مدرس من أبناء الرقة أيضاً، اعتبر أن تنظيم الدولة ليس أكثر من سلطة عسكرية. "ليس لها حدود واضحة، والناس في مناطق سيطرتها ما يزالون تابعين لسوريا والعراق، البطاقات الشخصية والجوازات ودفاتر العائلة، والموظفون ما زالوا يتقاضون مرتباتهم من دولتيهم، وبحال أصدرت دولة داعش جوازات سفر، لن يعترف بها وبجوازاتها أحد ولن تكون بالتالي ذات قيمة، بالإضافة لذلك، ليس لديهم خطط واضحة من أجل التعليم والصحة وغيرها، وهذا وضع كارثي".

السيدة أم علاء، ربة المنزل الهادئة، أكدت أيضا أن سلطة التنظيم لا تقوم على غير الترهيب والخدعة.. "ابني معتقل لديهم منذ شهرين، وكل توسلاتي لهم لإطلاق سراحه لم تلق آذاناً صاغية، لكن في يوم العيد جاء اثنان منهم مع جزء من جثة، وقالوا لزوجي وأولادي إن ولدنا عاق، ولكن هم مسؤولون عن بقية العائلة!".

وبالنسبة لكثيرين، يثير مرأى عناصر داعش نفس الشعور الذي يثيره مشهد قوى الأمن التابعة لنظام الأسد، والتي تسلطت على حياة الشعب السوري لعقود طويلة، مثل الطالب الجامعي أحمد. "يذكروننني دائما بعناصر المخابرات والأمن، كل عنصر يعالج القضية على هواه، وينظرون للناس بفوقية" وأضاف: "إن من مفارقات داعش طريقتها في التمييز بين المهاجرين والأنصار، فالمهاجرون مكانتهم في التنظيم تشبه مكانة العناصر القادمين من الساحل السوري (العلويين) في جيش النظام وأجهزته الأمنية".

حسين, وهو طبيب، رأى من جانبه أن السؤال يجب أن يكون عن كون داعش سلطة أم تسلطا. "يجب أن يكون السؤال بين التسلط والسلطة، لأن داعش تمارس التسلط على رقاب الناس وعندهم نهم للسلطة، هم يقومون بالصلب والرجم والجلد تشفياً وتثبيتاً لسلطانهم، وليس لتطبيق شرع الله، إنهم سلطة في المهد، وزائلة بإذن الله".

الطلبة الجامعيون أجمعوا في سياق التحقيق، على مواقف عدة متطابقة، فحمادي هو الآخر، وهو من طلاب المدينة، يرى أن الدولة تقوم على أسس علمية واضحة وخطة واستراتيجية وإجماع، "بينما داعش ليس لديها الخبرة الكافية بإدارة المرافق الحيوية، وليس لديهم خطط علمية، وإدارتهم لمناطق سيطرتهم بتخويف الناس من بطشهم ليست إدارة بطبيعة الحال"، وأردف: "مما زاد الأمر سوءاً انتساب كثير من الجاهلين والوصوليين لهذا التنظيم، وما حدث في منبج في القصف الأخير يثبت ذلك، حيث قام أحد عناصر المدعو أبو النور مسؤول الكهرباء لداعش، بإجبار تسعة موظفين على إصلاح عطل يحتاج فقط لموظفَين اثنين، وذلك مكان القصف الأول للطائرة، وعندما عادت وقصفت الطائرة مرة أخرى استشهد ثمانية موظفين، وقدم ذو الشهداء شكوى على المدعو أبو النور، ولكن دون جدوى".

من زاوية أخرى، محمد، وهو مدرس رقاوي، رجّح لنا أن الغرب سيضرب مناطق سيطرة داعش عاجلاً أو آجلاً، وستتحول مواقعها العسكرية إلى ركام، مضيفا: "معظم الخبرات العلمية والشباب سافروا أو يحاولون السفر، ربما نعيش الآن في هدوء نسبي، ولكن عندما يبدأ الغرب بقصف مناطق داعش بالطائرات والصواريخ، لا يميز بين مدني وعنصر من التنظيم، وكثير من عناصر داعش هم أبناؤنا المغرَّر بهم ويبقون أبناءنا، نحن لا نرفض داعش لأنهم يطبقون الشرع، نحن نريد أن يطبَّق شرع الله ولكن بشكل تدريجي وبطريقة لا تجلب لنا الخراب. الناس بدأت تخشى الاقتراب من مراكزهم، دائما نتوقع انتهاء الأمر بهذه الطريقة".

أحد أصحاب المحلات التجارية في مدينة الرقة ويدعى عبد الله، أوضح أن عناصر التنظيم لا يتدخلون إلا في مسائل أمنهم وأمن تنظيمهم. "إنهم يعدمون كل من ينتمي للجيش الحر أو جبهة النصرة أو أحرار الشام، فيما لا توجد قوانين تحد من جشع التجار الكبار المحتكرين، الذين تربطهم معها علاقات جيدة".

وعلى النقيض من ذلك، يرى الطالب الجامعي حسام أن "الأخطر في سلطة داعش أنها تحاول التأسيس لدولة حقيقية، فهي تتعامل مع نفسها على أنها واقع مستمر، وتقوم مثلاً بمشاريع ري للأراضي الزراعية وهناك من عناصر التنظيم من المهاجرين الأجانب حصراً، أصحاب خبرات في إقامة هذه المشاريع وتنظيمها، بالإضافة لعمل عائلاتهم بها. هذا الأمر يدل على وجود فكرة التوطين والاستقرار".

كذلك، يتعاطف التاجر (ك) مع التنظيم خصوصا أمام الاتهامات بالإرهاب. "تهمة الإرهاب تجنٌ على تنظيم الدولة، لأنه رغم كل الحشد الإعلامي ضده، لم يقتل (حسب زعمهم) ما قتل بشار وميليشيات المالكي، والذين هُجِّروا رقم بسيط أمام من هجرهم بشار والمالكي. على الأقل في سلطتهم لا يفرضون علينا حول تجارتنا الأتاوات والضرائب التي ما أنزل الله بها من سلطان. كان يسود هذا النوع من الفساد كثيرا أيام حكم نظام الأسد".

يبقى الثابت بين كل هذا، أن دولة داعش هي في جزء كبير منها أمر واقع بدلالة السلطة الدكتاتورية المحكمة المُقادة من عقل إجرامي عنفي إلغائي توسعي، وهي تسعى لتكريس سلطتها بنشر منهاجها بالقوة، وهذا إن حدث، لا ينبغي أن يستمر طويلاً، لأنه يخالف التاريخ، ويخالف أيضا تطلعات شعوبنا في مستقبل عادل وديمقراطي، لا تشوش عليه أيدولوجيات العنف الطائفي والتجييش، بل تتكامل قوى المجتمع للنهوض والرفاه والتقدم.

قدسيا، من الحرية إلى التشبيح، رحلة مسلحين

■ دمشق – عامر محمد

ورثت أم علي عن زوجها الذي استشهد في نهاية عام 2011 على واحدة من جبهات دمشق وريفها، بندقية، وثلاثة أطفال أكبرهم يبلغ التاسعة، بقيت طوال أشهر تحمل البندقية في جلبابها، الذي لم يستطع أن يخفي شكل السبطانة تماماً، بينما وزعت الرصاص على الأطفال الثلاثة كل حسب عمره وقدرته على حمل وزن معقول، أثناء التنقل بين أبنية قدسيا من ساحة "كوران" المطلة على الهامة وصولاً إلى ساحة تشرين ثم ساحة قدسيا الرئيسية، وهي تؤمن الذخيرة والمؤن لعناصر الجيش الحر في قدسيا.

من منتصف صيف 2012 وحتى نهاية العام ذاته، أصبح ظهور الجيش الحر في قدسيا علنياً، شبان يحملون السلاح أو يخفونه تحت ملابسهم، يحرسون الزوايا والزواريب، كانوا شباناً من مختلف الأعمار من أهالي قدسيا الأصليين، أو ممن سكنوها منذ عشرات السنوات، ورغم ضعف خبرتهم العسكرية، أو انعدامها، وعدم إدراكهم لحجم المعركة القادمة، إلا أن الشعور الثوري العالي الذي ترافق مع الكثير من أحلامهم عن سوريا المستقبل، آنذاك، أبقى على نوع من الترابط والانضباط فيما بينهم، فلم تسجل أي انتهاكات حقيقية بحق المدنيين، ولم يعرف السكان منهم إلا الانتشار الليلي الهش وانتظار الجميع للمعركة مع النظام وقواته، التي كانت تحشد على أطراف قدسيا في انتظار ساعة الصفر، كان المقاتلون يقضون الوقت في استهداف مخفر الشرطة الذي يقع في شارع مرتفع ومطل على البلدة، وقد أطبقوا الحصار على المخفر لأشهر، يوصلون المارة ليلاً بسيارتهم حتى منازلهم، ويحذرونهم من وجود طريق يكشفه قناص.

أطلقت المعركة، فدُكت قدسيا جواً وبراً، هرب سكانها ونهبت محالها، قُلبت مقبرتها وقصفت، وخسر النظام فيها عدداً من جنوده وضباطه، فيما لم يصمد الجيش الحر فيها أكثر من ساعات، وخرج قسم منه مع المدنيين الذي ركبوا أي شيء له عجلات، عبر طريق الضاحية إلى دمشق.

أنهى النظام عمليته سريعاً، وأعلن قدسيا مع جارتها الهامة "مطهرة"، ومضى تاركاً البلدة محترقة ومكسورة على طريق ثورة، فهمت عائلات قدسيا الكبرى والتي تسيطر على الاقتصاد المحلي، وتملك الأراضي وأغلب الأبنية، أن المعركة خاسرة، وأنه ما من جدوى من فتحها لمرة ثانية، فدخلت في وقف ذاتي لإطلاق النار، بقيت عائلتان فقط ترفضان إنهاء المعركة، وتعتبران أن الحرب لا بد أن تستمر، مضت الأيام على قدسيا طوال عام 2013 وهي تعيش حصاراً جزئياً أو كلياً، كانت الغالبية العظمى من العائلات التي سكنت قدسيا قد غادرتها منذ عام 2012 باتجاه دمشق أو إلى خارج البلاد، فيما حل محل السكان المالكين للبيوت، مهجرون من كامل القوس المحيط بدمشق، من غربها إلى شرقها مروراً بجنوبها، فمن برزة إلى عين ترما وجوبر والمليحة ومخيم اليرموك والعسالي والمعضمية وداريا، سكنت عائلات نازحة مساجدَ قدسيا ودورها، باحثة عن سماء لا يكثر القصف فيها وأرض يصلها بعض الخبز، القوات النظامية دكت قدسيا بالهاون وقذائف الدبابات طوال العام، بشكل متقطع، وكلما حدث خلل أمني، ولم تدخلها برياً منذ خرجت منها نهاية 2012.

حين دخلت قدسيا فيما يسميه النظام "مصالحة وطنية"، كان عناصر الحر في قدسيا قد تشتتوا بين من خرج منها باتجاه الغوطة الدمشقية، ليتابع القتال هناك، أو من قضى في معاركها، أو من ترك السلاح، من بقي يحمل السلاح فيها تحول إلى "دفاع وطني"، فنصبت المتاريس والحواجز على بعد أمتار من حواجز القوات النظامية، ورفع شعار الدفاع الوطني عليها، بينما لم يتوقف حصارها الجزئي الذي يتخلله حصار كلي كلما غضب النظام، ومع أن الهاون والمدفعية وحتى طيران الميغ، قصف قدسيا أحياناً، إلا أن النظام بقي متابعاً لما يجري في داخلها من نزاع بين من باتوا دفاعاً وطنياً، ومن أصروا على أن يبقوا في صفوف الحر حتى من دون قتال، وهؤلاء كثيراً ما يختلفون، فيطلقون النار باتجاه بعضهم.

اليوم، إذا سكنت قدسيا فعليك أن تعلم أن طابور المخبز سيكون مكتظاً، لأن "الدفاع الوطني" الجديد، نظّم الطابور بين من هم من سكان قدسيا، فأعطاهم ميزة عدم الانتظار، ومن هم من غير سكانها الأصليين فتركهم في طابور طويل، ولن تستطيع أن تفتح "بسطة" لبيع أي شيء، إلا إذا قمت باستئجار الرصيف من الدفاع الوطني، فأنت لست من سكان قدسيا، ولن يعفيك من هذا العبء، أنك قادم من أرض حرب أحرقت منزلك وأكلت ما كنت تملك، سيكون بإمكانك استئجار خط كهربائي يؤمنه الدفاع الوطني، الذي كان حتى الأمس جيشاً حراً، بمبلغ ثلاثة آلاف ليرة سورية في الشهر، لكن عناصر الدفاع الوطني قد يقررون قطع التيار عنك متى شاؤوا، ولن يكون بإمكانك أن تعترض.

في قدسيا كما الهامة، يتحدث شبان شاركوا في مظاهرات نادت بإسقاط النظام، عن خشيتهم على حياتهم، من مسلحين وثوريين سابقين، ومنتسبين للجيش الحر في البلدتين، فحين كان هؤلاء الشبان يحاولون رفع الصوت بأن حمل السلاح سيكون كارثياً على البلاد والعباد، تعرضوا لإقصاء وتعنيف لفظي، واليوم يلاحَق هؤلاء من قبل النظام في خارج البلدتين، ومن قبل مسلحين في داخلها، إذ كان يكفي تقرير صغير رفعه عنصر من مسلحي الهامة للمخابرات بحق (س.ر)، شاب لا يتجاوز الثالثة والعشرين، ويتبنى شعار سوريا الدولة المدنية، ليجعل الشاب حبيساً لشارعه، فلا هو بقادر على البقاء في الهامة، ولا هو بقادر على مغادرتها. يقول (س.ر): "أفكر في مغادرة سوريا نهائياً، وأشعر يومياً بالخوف من رصاصة تأتيني من أحدٍ في بلدتي، فأنا بنظرهم بت مصدرا للمتاعب، ولا تعجبهم طريقة تفكيري".

أم علي الثلاثينية، التي كانت لا تكتفي بلعب دور الناقل للذخيرة والطعام إلى المقاتلين، بل تشارك في إطلاق النار على الحواجز العسكرية أحياناً، مع إدراكها أنها لا تصيب الهدف، تؤكد أن الشعور بأنها تطلق النار تجاه عدوها كان يكفيها، علّمها زوجها الشهيد ألا تثق بأحد ممن لا تعرفهم شخصياً، كان التنقل بالنسبة لها في قدسيا يتم ليلاً والتيار الكهربائي مقطوع، وبرفقة ثلاثة أطفال.

يروى عنها في إحدى المرات التي كانت تنقل فيها الذخيرة عبر جيوبها وجيوب أطفالها، أنها صادفت رجلاً في مدخل بناء، كان الظلام يمنع التمييز ويحجب الوجوه. في مدخل البناء أسقط صغيرها الرصاص من جيوبه، فسارعت إلى التقاطه وإعادته إلى جيوب الصغير، عيونها تراقب الرصاصات وتراقب وجه الرجل، الذي تسمر في مكانه، ولكي يكسب ثقتها همّ بالتقاط الرصاص معها، إلا أنها زجرته وأمرته بأن يتابع الطريق، وما إن انتهت حتى أنّبت طفلها على فعلته وساقته مع أخوته لمتابعة المهمة.

يقال فيما يقال أيضا، إن أم علي قضت في قدسيا، إبان العملية العسكرية التي شنها النظام على البلدة في كانون الأول من عام 2012.

طابور على أحد أفران قدسيا - آذار 2014

الطلاب السوريون ومستقبل العملية التعليمية

■ مهند النادر

تزيد نسبة الأطفال عن 50 بالمئة من مجمل عدد اللاجئين السوريين في الدول التي هربوا إليها خوفاً من الموت بسبب الصراع المحتدم فيها بلدهم، تقرير منظمة الأمم المتحدة للطفولة "اليونيسيف" أطلق تسمية "الجيل الضائع" على الأطفال السوريين كونهم الأكثر تضرراً مما يجري في سوريا، وبسبب ظروف الحياة السيئة في مناطق اللجوء.

الطفل السوري الذي فقد طفولته نتيجة الحرب، تركها خلفه عندما اضطر إلى مغادرة منزله مع من تبقى من ذويه، ودّع ألعابه وأصدقائه ومقاعد الدراسة، وانتقل إلى العيش ضمن ظروف جديدة قاسية لا تقدم له إلا الشيء اليسير من مقومات الحياة، فلا مدرسة تحتضن طفولته وتلبي حاجته للعلم واللعب والأصدقاء، ولا بيئة اجتماعية تعوضه عما فقده عندما غادر منزله وبيته. "يا اللّه كم أشتاق إلى مدرستي".. تسمعها من الأطفال السوريين عندما تسألهم عن مدارسهم ولماذا هم في الحدائق يلعبون أو في الشوارع يبيعون المناديل الورقية، حسان يشكو وبحسرة ابتعاده عن مقاعد الدراسة " منذ أكثر من عام لم أدرس أو أكتب وظيفة فقد دمرت مدرستنا ولجأنا إلى تركيا". حسان، نموذج لعشرات أو مئات الآلاف من الأطفال السوريين اللاجئين إلى دول الجوار بسبب الحرب الدائرة في بلدهم، الذين انقطعوا عن مدارسهم ومتابعة التحصيل العلمي مما ينذر بمستقبل مخيف لسوريا بسبب اتساع نسبة الأمية ونمو جيل بعيد عن مقاعد الدراسة.

حتى اليوم ما تزال مشكلة الدراسة ومتابعة التحصيل العلمي هي الأكثر تعقيداً من بين المشاكل التي تعترض اللاجئين السوريين في منافيهم القسرية، وضياع الفرصة على من تبقى من أبنائهم في الحصول على تعليم مناسب واستكمال التحصيل العلمي. وتظهر هذه المشكلة بوضوح لدى الطلاب السوريين الذين لجأوا إلى تركيا.

تقوم الجهات المختصة بتوفير المدارس للطلاب السوريين داخل المخيمات للمرحلتين الأساسية والثانوية، أما اللاجئين السوريين خارج المخيمات المقيمين في المدن التركية فتبقى مشكلة التعليم من أصعب المشكلات التي تواجههم، حيث أن نسبة 10٪ فقط من أطفالهم أتيحت لهم الفرصة لمواصلة تعليمهم، حيث تعترضهم العديد من الصعوبات للتسجيل في المدارس التركية إضافة إلى عقبة اللغة التركية التي لا يتقنها التلاميذ السوريين مما يعقد المشكلة ويجعلهم غير قادرين على ارتياد تلك المدارس ومتابعة المنهاج كبقية التلاميذ الأتراك، فإنه يتوجب عليهم الحصول على تصريح الإقامة في تركيا وتقديمه إلى المدرسة والذي يتطلب امتلاكهم لجواز السفر الذي يفتقده الكثير من السوريين.

عملت تركيا على تجاوز هذه المشكلة من خلال العمل على افتتاح عشرات المدارس التي تدرس المنهاج السوري في العديد من مدنها، حيث قدمت بعض المدارس التركية ذاتها "حيث يبدأ دوام التلاميذ السوريين بعد انتهاء دوام التلاميذ الأتراك" واللوازم المدرسية، ويقوم بالعمل فيها معلمون سوريون وتشرف عليها وزارة التربية التركية بالتعاون مع الهيئة العامة للتربية والتعليم العالي في الائتلاف الوطني السوري، ووزارة التربية في الحكومة السورية المؤقتة، كما قام مكتب التربية والتعليم بتعديل المناهج بما يتناسب مع الوضع السوري الجديد. كما عمل بعض رجال الأعمال السوريين وبعض الجمعيات الخيرية على افتتاح عدد من المدارس السورية الخاصة والتي تدرس المنهاج السوري، إلا أن هذه المدارس تستقبل فقط الطلاب الذين يستطيعون تسديد أقساطها التي غالباً ما تكون مرتفعة نسبياً مما يجعل الكثير من العائلات تحجم عن إرسال أبنائها إليها.

إن عدد المدارس التي تم فتتاحها في المدن التركية غير كافية لاستيعاب التلاميذ السوريين وخاصة التي تتبع لائتلاف المعارضة، وكونها مجانية تعاني من الازدحام الشديد حيث يصل عدد التلاميذ إلى 60 تلميذ في الصف الواحد، إضافة إلى توزيع دوام التلاميذ على فترات متتالية لا تتجاوز الواحدة منها الثلاث ساعات يومياً لان التلاميذ يتناوبون على ذات القاعات الدراسية، وهنا لا بد لنا من التساؤل حول إمكانية تقديم تعليم حقيقي للطلاب السوريين في تلك المدارس.

كما أدى لعدم قدرة البعض منهم على اختيار ما يريد من اختصاص خاصة في المرحلة الثانوية، "علي" طالب في الثالث الثانوي عانى لفترة طويلة حتى استطاع التسجيل في مدرسة سورية "راجعت مدرسة الاستقلال في غازي عنتاب عدة مرات وفي كل مرة كانوا يقولون نحن نتصل بك واسمك على الاحتياط بسبب عدم وجود أماكن، ولم أتلق أي اتصال إلا بعد شهر ونصف من الانتظار ولكنهم للأسف أخبروني أني أستطيع التسجيل في الفرع الأدبي رغم أني طالب في الفرع العلمي سابقاً، لم أجد أي حل فاضطررت للتسجيل فيها".

واقع المدارس وإمكانية استيعابها جعل العديد من أولياء الأمور يشكون من عدم توفر أماكن لأبنائهم في المدارس السورية في تركيا، وعدم قدرتهم على تسجيلهم في المدارس الخاصة، "أبو يوسف" والد لخمسة أطفال بعمر المدرسة يشكو من عدم توفر أماكن في المدارس التابعة للائتلاف وعدم قدرته على تسجيلهم في المدارس الخاصة لعدم قدرته على تسديد أقساطها، يقول "بحثت في أكثر من مدرسة وأكثر من مدينة لم أستطيع تسجيل أولادي، والمدارس الخاصة ليس لدي القدرة على تكاليفها". الأمر الذي أبقى أعداد كبيرة من الأطفال خارج المدرسة مما يعرضهم للعديد من المشاكل والاستغلال والانحراف، فقد أصبح مشهد أطفال سوريين يبيعون الماء أو الدخان عند إشارات المرور مألوفاً، والبعض امتهن التسول، بدلاً من ارتياد المدارس التي ستكون حتماً المكان الآمن لهم، حيث يمكنهم أن يتعلموا أشياء جديدة ويؤسسوا صداقات، مما يساعدهم على استعادة جزء من حياتهم الطبيعية التي غادروها عندما غادروا بيوتهم ومدنهم

إضافة إلى كل ما سبق، يعاني الطلبة السوريين الحاصلين على شهادة الثانوية العامة من مشكلة عدم الاعتراف الدولي بها مما يعيق استكمال تحصيلهم الأكاديمي، وفي بداية هذا العام اعترفت الحكومة التركية بالشهادة الثانوية الصادرة عن الهيئة الوطنية العليا للتربية والتعليم العالي في الائتلاف الوطني السوري بناءً على قرار وزارة التربية التركية، وشمل الاعتراف كل من جامعات (إستنبول – أنقرة – أضنة – مرسين – ارزوروم – فان – غازي عنتاب). ويؤكد مستشار الحكومة المؤقتة للشؤون التعليمية الدكتور عبد الرحمن الحاج بأن "الحكومة السورية المؤقتة تعمل على توسيع نطاق الاعتراف بالشهادة العامة لتشمل معظم الدول العربية بالإضافة إلى دول أصدقاء سوريا، وهذا لم يتم إنجازه حتى اللحظة.

وفي إطار المساعي الهادفة إلى مساعدة الطالب السوري ساهمت وزارة التربية الليبية في حل مشكلة الاعتراف الدولي، من خلال السماح لطلاب الشهادتين الإعدادية والثانوية

طلاب سوريون في إحدى مدارس الأمم المتحدة في الأردن

مساعدات اليونسيف للطلاب السوريين في لبنان

العامة بتقديم الامتحانات بالمنهاج الليبي، والحصول على شهادة المرحلة الإعدادية أو الثانوية الصادرة عن وزارة التربية الليبية والمعترف بها دولياً، وما يزال الكثير من المدارس السورية تعتمد هذه الطريقة لحل مشكلة استكمال الطلبة لتعليمهم العالي الأكاديمي.

إضافة إلى كل العقبات التي تعترض العملية التعليمية بسبب ظروف اللجوء، تنشأ أمامنا مشكلة أكثر تعقيداً تتمثل بانتقال سيطرة الفكر الإسلامي المتشدد على معظم المشهد السياسي السوري إلى داخل مؤسسة التعليم، من خلال سيطرة نماذج متأسلمة على المدارس وتكريس بعض السلوكيات التي تتنافى مع الواقع السوري وطموحات الشعب التي بذل في سبيلها الغالي والنفيس والتي تختصر بالحرية والديمقراطية، والعمل على فرض تقاليد وأسس تتنافى مع حرية الإنسان وحقه في الاختيار والاعتقاد، فتجد الكثير من المدارس التي تتسابق في فرض الحجاب على الطالبات حتى في المرحلة الابتدائية، فمدرسة "منيب باشا" في غازي عنتاب يمنع مديرها دخول الطالبات دون حجاب إلى المدرسة.

ومدير مدرسة "رواد المستقبل" يمنع مجموعة متطوعة في الدعم النفسي للأطفال من الغناء وعزف الموسيقا لهم بحجة أن الموسيقا حرام حسب قوله، رغم الحوار والجدل الذي دار معه حول أهمية الموسيقا وأثرها على نفسية الطفل ودورها في بناء شخصيته، ويصل حد التدخل في حرية الفرد وحرية المعتقد إلى أن يجبر معلمة على ارتداء الحجاب شرط توظيفها مستغلاً حاجتها للعمل بسبب ظروف اللجوء السيئة. وفي حديثنا إلى المعلمة قالت: " لقد نزحت إلى تركيا مع أطفالي بسبب الحرب، وبعد معاناة طويلة في البحث عن عمل يجنبني وأطفالي الحاجة ويعيننا على عيشٍ كريمٍ وجدت فرصة للعمل في هذه المدرسة ولكني خضعت لإملاءات المدير قبل أن أراه، حيث اشترط عليّ ارتداء الحجاب قبل قدومي إلى المدرسة وبالفعل قمت بارتدائه لكسب الوظيفة " تنهدت وهي تقول: " حاولت أن أقنعه أثناء المقابلة إنني مسلمة وأعرف واجباتي جيداً لكني لم أقتنع بارتداء الحجاب لكنه أكد لي انه لا عمل في مدرسته لمعلمة غير محجبة".

ذات المدير وذات المدرسة التي يمنع فيها الغناء وعزف الموسيقا لأطفالنا يردد فيها أبناؤنا شعار "الإسلام ديني، محمد نبيي، الجنة مطلبي" ثلاث مرات قبل دخولهم إلى الصف حسبما أخبرنا أحد معلمي المدرسة، فهل حلم السوريون بالخلاص من عقلية حزب البعث الديكتاتورية وشعاراته للعودة ثانية لخلق المجتمع ذي اللون الواحد كي يتلقفهم هؤلاء "الديكتاتوريون الجدد" الذين يعملون باسم الثورة وبعقلية الملالي.

كما يلاحظ عندما يكون هناك إعلان عن مسابقة لتعيين المعلمين في إحدى المدارس، طغيان الفكر المتشدد على العمل بدءاً من طبيعة الأسئلة التي تطرح على المعلم أو المعلمة والتي تكون بعيدة كل البعد عن الاختصاص الذي يحمله المعلم، مدرسة لغة إنكليزية ولها من الخدمة في التدريس ما يتجاوز الخمسة عشر عاماً، تقول "تقدمت إلى مسابقة تعيين في مدرسة تتبع إلى جمعية النور السورية في مدينة إستنبول وفي الامتحان التحريري كان هناك مجموعة من الأسئلة التي لا علاقة لها بمادة الاختصاص وتتعلق بأمور دينية بحتة، كم عدد ركعات الوتر، ما حكم كذا وما شابه"، تضيف قائلة "هذه أسئلة هدفها تمييز المعلمين حسب طوائفهم ومدى التزامهم الدين وهذا يتنافى مع أهداف ثورة شعبنا". وصولاً لفرض الزي الإسلامي المتشدد، تتحدث معلمة أخرى عن حضورها لمسابقة في مدارس بلا حدود قائلة "جميعنا ارتدينا الحجاب الذي غطى كامل الوجه قبل الوصول إلى مكان المقابلة، وإلا فالنتيجة واضحة دون حجاب يعني الرسوب ورفض التوظيف ونحن جميعاً بحاجة العمل وظروفنا سيئة للغاية".

إن منهج عمل وعقلية إدارة العملية التربوية بهذه الطريقة لا تقف حدودها عند مدير مدرسة أو مشرف على التوظيف، يبدو أنها تتعداه لتكون منهج شبه عام ومتوافق عليه بشكل غير معلن بين معظم القائمين على متابعة العملية التعليمية، تؤكد معلمة رواد المستقبل والتي تم فصلها من المدرسة بسبب موقفها المعارض للمدير وأفكاره، على ذلك فتقول "من خلال تقديم الشكوى إلى الجهة المختصة في الائتلاف الوطني المعارض لم نلمس إلا الالتفاف والتسويف وقبول رواية المدير دون أي تحقيق جدي في الموضوع، وكان تجاوب وزارة التربية في الحكومة المؤقتة عدم الاهتمام وبقيت شكوانا بلا رد". وتتساءل "هل هذا تقصير أم موافقة ضمنية على هذه السلوكيات".

تُعد المدرسة مكاناً آمناً بالنسبة للعديد من الأطفال اللاجئين، حيث يمكنهم أن يتعلموا أشياء جديدة ويؤسسوا صداقات، فالمدرسة تساعدهم في استعادة جزء من حياتهم الطبيعية ووضع أهداف للمستقبل، وهنا لا بد من طرح العديد من الأسئلة التي تفتح أبوابا للحل. فإلى أين تسير العملية التربوية، وما المنهج الذي تبنى عليه، ما النتائج المرجوة منها، هل سنعيد بناء أبنائنا على ذات العقلية المتحجرة والمتعصبة والتي لا تنتج إلا مزيداً من العنف وعدم التوازن الاجتماعي، ألا نحتاج إلى آلية عمل وبناء وتربية في العملية التعليمية لإنتاج جيل أكثر انفتاحاً ووعياً وإدراكاً لذاته ودوره الإنساني في الحياة، أسئلة تجول بخاطر الكثيرين تحتاج إلى تفاعل واستجابة للوقوف في وجه ما يجري في مدارسنا والتصدي الحقيقي لمهمة تربية رجال المستقبل.

هل انتهى أمل الليبيين في ربح استحقاق الدولة الوطنية؟
نظرة على الراهن السياسي الليبي

■ ياسر مرزوق

يقول نزار قباني في معرض أحد نصوصه بعد هزيمة حزيران عام 67:

"احترق المسرح من أركانه ولم يمتْ بعدُ الممثلون"

والتساؤل الذي يستبطنه المقطع إياه، يبدو بعد عقود أنه ما زال يتجدد، ففي كل مرة ينجلي فيها المشهد الصعب عن تعري النخبة وانكشافها أمام "جماهيرها"، في هزيمة حزيران كما في قمع الثورات العربية اليوم، وفي كل مرة يحترق المسرح، يواصل "الممثلون"، علاوة على أنهم لم "يموتوا"، يواصلون الأدوار الكارثية نفسها.

هو إذن سؤال يمس الحاجة إلى التغيير البنيوي المنشود في الثقافة بمعناها الأشمل، والذهنية التي تدار وتمارس بها الثقافة، ويبقى المعنيون بالسؤال غير معنيين، مسكونين بأسئلة أخرى كثيرا ما تكون "غيبية"، مهما قالت بالحداثة، واستبدادية مهما لهجت بحمد الجمهورية المدنية.

في سوريا يولد على جثة نظام الأسد في المجتمعات المحلية الثائرة، مشاريع أنظمة وسلطات، متعددة الأزمنة والأهداف، يجمعها كلها الحاجة إلى ضبط إيقاع البشر وتحجيم فعلهم الحر، من الهياكل السياسية التقليدية التي تبذر المال السياسي والوعود راجية حصد قبضةٍ أكثرَ إحكاما ودور أكثر فعالية، إلى الفصائل العسكرية المؤدلجة في المعارضة، والميليشيات الطائفية التي تقاتل على ضفتي المعركة، ونظام الأسد بطبيعة الحال، ومن ورائه داعموه.

في مصر أيضا يربح فلول النظام السابق، ويأتي ضابط بار لمؤسسة مبارك الأمنية والعسكرية- الرأسمالية، ليمسك بزمام الأمور مستعيدا مشاهد انقلابات القرن العشرين المشؤومة، وفي اليمن تتمزق البلاد بالصراعات في ظل ضعف قبضة الدولة المركزية، وعدم قدرتها على تنفيذ إجماع اليمنيين.

وإذا ما اتجهنا غرباً نحو ليبيا، محور ملفنا اليوم، ستطالعنا عينة مثل هذه من الأنباء: اشتعال النيران في مستودعات النفط بطريق المطار، سرقة طائرات شركة (سيفاكس أيرلاين) التونسية من مطار مصراتة، مغادرة السفير البريطاني البلاد، مقتل أربعة أطفال جراء انفجار قاذف (ار بي جي) في مدينة بنغازي، توضيح من هيئة السلامة الوطنية في طرابلس بخصوص حريق خزانات النفط، جامعة بنغازي تعلن عن تأجيل الدراسة إلى إشعار آخر، خوفاً على حياة الطلبة والطالبات، الشركة العامة للبريد والاتصالات تعلن احتمال توقف خدمات الإتصالات بطرابلس، السلاح الجوي يستهدف رتلاً تابعاً لأنصار الشريعة في منطقة المقرحة.

ليبيا إذن، والتي كانت ثورتها استحقاقاً وطنياً ومرحلة تاريخية فرضها تصحر النظام وانسداد أفق وأدوات التغيير السلمي، قدمت للطامعين الإقليميين على طبق من ذهب.

يعاني الليبيون من انعدام الأمن وخطر التقسيم، وهي بمعنى ما، مسؤولية نظام القذافي المستمرة حتى الآن، فما يحدث اليوم سببه الأول والأخير التصحر السياسي، وبناء قصور من الرمال، وتفريغ المؤسسات والحروب العبثية في أرجاء العالم قادها القذافي.

وبحسب تقديرات غربية هناك عشرون مليون قطعة سلاح في أيدي الليبيين، ويأتي انقلاب اللواء المتقاعد خليفة حفتر، ليكمل عبثية المشهد، وليطرح تساؤلاً عن جدوى ثورة الليبيين إذا كانت ستستبدل عقيدا بلواء، وقد يكون الانقلاب بحد ذاته عبثياً، إذ لا وجود لمؤسسة عسكرية موحدة لتعلن الانقلاب، ولا دولة مركزية تحكم ليتم الانقلاب عليها، وليستكمل حفتر المشهد أعلن عن انقلابه عبر قناة العربية التي تبث من دبي.

مليون ليبي خارج ليبيا حتى اليوم، بعد مضي ثلاث سنوات على التحرير، والطبقة السياسية تؤثر التناحر وتبادل الاتهامات بدلاً عن التوافق لإطفاء الحريق، والحديث دائم عن مؤامرة واضحة المعالم، تشارك فيها غرف عمليات في عمان ودبي والقاهرة وروما، وتترك أسئلة للتاريخ، عمن قتل عبد الفتاح يونس الرجل الذي كان مرابطاً على الجبهة، وعن دور مفترض للقيادي الفلسطيني محمد دحلان فيما يجري، أسئلة ربما ارتبطت بالتاريخ الليبي، تعيد للأذهان سؤالاً عمن قتل الإمام موسى الصدر أيضا، ودور أبو نضال القيادي الفلسطيني.

وتيرة الاغتيالات والاختطافات تزايدت بدورها، وطالت شخصيات مدنية وقضائية وعسكرية، ذهب ضحيتها العشرات منذ سقوط النظام السابق، كما سُجل هروب أكثر من ألف سجين من سجن الكويفية بمدينة بنغازي شرق ليبيا، ثم أثار المزيد من الجدل والشكوك، اغتيال عبد السلام المسماري، الناشط السياسي الليبرالي المعروف بانتقاداته لجماعة الإخوان المسلمين، والذي يعد من المنظمين الأوائل لاحتجاجات عام 2011 في بنغازي ضد حكم معمر القذافي، سلسلة مظاهرات هوجمت خلالها مقرات للإخوان المسلمين وذراعها السياسي في مدينتي طرابلس وبنغازي..

كان المؤمل بعد سقوط الطاغية أن يفتتح الليبيون عهداً جديداً من تاريخهم، بإقامة دولة دستورية، تصون السلم الأهلي وتكفل الحرية والديمقراطية والعدالة والمواطنة المتساوية للجميع، والتنمية المتوازنة بين المناطق، إلا أنه وبعد ثلاث أعوام على سقوط نظام القذافي، تبدو الفوضى الخلاقة هي العنوان الأبرز في ليبيا اليوم، مع تعدد جبهات القتال بين الميليشيات الإسلامية والمقاتلين المدعومين من ليبراليين. وقد تضاربت الأنباء بشأن مصير حفتر. ففيما وصف الناطق باسمه محمد حجازي، الانسحاب الذي قامت به القوات التابعة للواء المتقاعد من معسكراتها في بنغازي بأنه "تكتيكي"، تحدث البعض الآخر عن فرضية لجوء حفتر إلى مصر.

إمارةٌ إسلامية تعلن، وأحلامٌ باستنساخ تجربة السيسي في ليبيا، وأقاليم تنفصل، وثرواتٌ تنهب، ومدن تحترق، إلا أن التاريخ الليبي يحمل قصصاً تروى وأمجاداً تؤكد قدرة الليبيين على الخروج من هذا المخاض، ففي عام 1711 قاد (أحمد القره مانلي) الضابط في الجيش العثماني، ثورة شعبية أطاحت بالوالي العثماني، لتخليص ليبيا من الحكام الفاسدين ووضع حد للفوضى، وانتزع من الخليفة العثماني الحق في ولاية ليبيا وراثية له ولسلالته، التي نبغ منها (يوسف باشا القره مانلي) أبرز ولاة هذه الأسرة. فقد كان حاكماً طموحاً أكد سيادة ليبيا على مياهها الإقليمية وفرض الضرائب "رسوم المرور" عبر مياه البحر الأبيض المتوسط على كافة سفن الدول البحرية الأمريكية والأوروبية، التي تعبر المياه الليبية، وفي سنة 1803م طالب بزيادة الرسوم على السفن الأمريكية تأمينا لسلامتها عند مرورها في مياه ليبيا والبحر المتوسط، وعندما رفضت الولايات المتحدة النزول عند رغبة ليبيا، استولت البحرية الليبية على إحدى سفنها، الأمر الذي دفع الحكومة الأميركية إلى الدخول في حرب مع ليبيا وفرض حصار على طرابلس وضربها بالقنابل، ولكن ليبيا استطاعت مقاومة ذلك الحصار، وأسرت البحرية الليبية إحدى أكبر السفن الحربية الأمريكية "فيلادلفيا" مع كامل بحارتها وجنودها في عام 1805، الأمر الذي جعل أميركا ترضخ وتخضع في النهاية لمطالب ليبيا، وبذلك استطاع يوسف باشا أن يملأ خزائن ليبيا بالأموال التي كانت تدفعها الدول البحرية تأميناً لسلامة سفنها، وتركت هذه الحرب آثارها حتى الآن في البحرية الأميركية، حيث لازال نشيد مشاة البحرية الأمريكية يشير إلى شواطئ طرابلس، كما أن هناك قطعة حربية في البحرية الأمريكية تسمى طرابلس.

تقف ليبيا اليوم على مفترق طرق، والمرجعية الأولى لليبيين في مواجهة إرث القذافي ورياح التقسيم، هو التاريخ، فالقارئ للتاريخ الليبي الحديث يؤكد أن سطوة العثمانيين وتحالفاتهم لم تفلح في إخماد ثورة "كومة المحمودي" في الساحل ولا ثورة "عبد الجليل سيف النصر" في الوسط والجنوب، كما أن الجيوش الإيطالية إبان الاحتلال لم تستطع فرض واقع على الأرض على مدى ثلاثة عقود، على الرغم من الخلل الواضح في ميزان القوى بين المجاهدين الليبيين وجيش كان يعتبر من أقوى جيوش الأرض حينها، ولم يسيطر الإيطاليون على المنطقة الغربية إلا عندما استفادوا من الخلافات التي صدعت جبهة القبائل.

إذا كان هذا يبدو تاريخا بعيدا للبعض، فهناك مثال ناصع قريب، ثورة السابع عشر من فبراير 2011 ضد استبداد نظام القذافي، الثورة التي أحيت أمل الليبيين في الحرية والعدالة والبناء، في سياق الموجة الجارفة التي اجتاحت دولا عربية عدة مطالبة بالتغيير الجذري، الذي ما زالت ليبيا وأخواتها يتعطشن إليه.

مظاهرات ليبية ترفض التقسيم

الخوف والمقاومة.. بناء الهوية العلوية في سوريا (1)

فصل من أطروحة ماجستير في الجغرافيا البشرية في قسم علم الاجتماع والجغرافيا البشرية | جامعة أوسلو
■ تورستاين شيوتس وورين - شباط 2007 | ■ ترجمة: د. ياسر نديم سعيد
رابط النص الأصلي كاملاً: torstein.worren.info/downloads

يتم إنشاء الخطاب بواسطة ما يطرده العلويون إلى خوارجهم البنيوية، فتتبع هوياتهم هذا النموذج من العلاقات مشكّلين أنفسهم ككل ما هو ليس هم.

يتم بناء «نحن» بواسطة بناء «الآخرين»، وهذا التشكّل الحدودي ينشئ في النهاية الـ«نحن».

تتشكل الهوية لذلك في هذه الحدود، وتصبح الفروق لب الهوية. هذا الفصل مخصص للتشكل الحدودي وبيان كيفية إنشاء العلويين أنفسهم عبر الإنشاء الاجتماعي للآخرين.

كما هو الحال في سردية العلويين التاريخية يشكّل السنّة الخارج البنيوي للهوية الجمعية العلوية.

تخلق الهيمنة الاستطرادية السنّية (المتركّزة على قوة السنّة في تعريف هوية المسلم والإسلام «الصحيح») أشكالاً من المقاومة بين العلويين، كما تخلق عندهم الشعور بالدونية في الفضاء العام. ومع ذلك فإن خطاب العلويين المضاد في «نسخته المختبئة» يُظهر أن العلويين بالرغم من أنهم يضعون أنفسهم في قعر التراتبية الهرمية للهويات الطائفية في سوريا، فإنهم ينظرون إلى أنفسهم بشكل متفوق اجتماعياً وثقافياً على خصومهم.

تتقوّى هذه الظاهرة بمشاركة العلويين للأقلية المسيحية وضعية معارضة لقوة السنّة. ينظر العلويون للمسيحيين نظرة تحليلية كشركاء لهم، ولكنهم ينظرون لهم أيضاً كنموذج يتم تقليده.

المسألة التي يناقشها هذا الفصل هي كيف يشكّل كل ذلك أساس بناء مجتمع العلويين، مع التركيز على الثقافة وطريقة الحياة والعلامات التي يستخدمها العلويون لتفريق أنفسهم عن السنّة.

«نحن وهم»

ليس بالضرورة أن تبرز الهوية العلوية أو أن تلعب دورها في العديد من المواقف. وكما هو الحال في كل الهويات، فإن الهوية العلوية تبرز للمقدمة في سياقات معينة فقط. وكثيراً ما يجري تعتيمها بواسطة هويات أخرى. وفي نفس الوقت فإن الهوية العلوية مهمة بالطريقة التي تعتبر فيها كل الهويات الدينية مهمة في سوريا، وهذه الهوية تتأرجح في الهواء في الخلفية بشكل أكثر أو أقل وباستمرار بحيث يمكن استخدامها كعامل مفسّر، أو كعامل مسبّب في العديد من القضايا.

يتضح من الأسئلة الموجهة للعلويين عن «من هم؟» الانطباع بأن هويتهم الطائفية ليست أول هوية يتم التركيز عليها في البداية. يرسم العلويون بشكل نموذجي عدة هويات لتعريف أنفسهم، والأكثر أهمية منها هي حقيقة أنهم سوريون عرب ومسلمون.

يتسم الخطاب السوري العام بتركيزه على هوية عربية عريضة أكثر منها هوية سورية وطنية. تستخدم الكتب المدرسية ويستخدم الإعلام وجهة النظر العربية الشاملة كاسم رسمي للبلد (الجمهورية العربية السورية) (Landis 2003). لا يختلف العلويون بذلك ومصادري كانت متحمسة للإشارة إلى أنها منتمية إلى مجموعة أكبر وأكثر امتداداً، ويقدّمون أنفسهم أولاً وقبل كل شيء كعرب وكسوريين.

هذا الأمر له علاقة بالخطاب الرسمي الذي يهمل الهويات الطائفية التي لا تُعتبر موضوعاً للنقاش العام. وبحكم التجربة عندما تتحدث لأحد ما لا تعرفه فإنه يلتزم بسبب ذلك بالخطاب الرسمي ويتكلم في الخطوط المقبولة. ومع ذلك عندما تُظهر لهم اهتماماً بالفروق الاجتماعية وبكيف يبدو مجتمعهم مختلفاً عن الأجزاء الأخرى من البلد، فإن الناس

جبال العلويين في الساحل السوري

سرعان ما يرغبون بالتفصيل أكثر والتحدث أكثر عن مجتمعهم مقدّمين هذا المجتمع بمصطلحات طائفية مثل المجتمع العلوي.

هذا إدراك واضح بين العلويين بأنهم مجموعة منفصلة تتشارك بسمات معينة تجعلهم مختلفين عن بقية السوريين. وهكذا حين بناء هويتهم الجمعية فإن أول شيء يتحدث فيه كل علوي تقريباً (ممن تحدثت إليهم) هو التركيز على شخصيتهم المتحررة. وككل السمات الشخصية فإن «متحرّر» هي صفة علائقية، وهم يستخدمونها بإجراء مقارنات مع المجتمع السوري ومع أوربا عندما يفصّلون في ذلك الأمر.

يشرح العديد من العلويين أنهم مختلفون ثقافياً تماماً عن بقية سوريا، ويستفيدون من خطابات أخرى مثل التحرر النسبي للثقافات المتوسطية، ويربطون ذلك مع الخطاب العلوي لبناء هذه الفكرة.

ما يميّز هذا «الخطاب النقدي العلوي» هو أنه أكثر توجهاً نحو الغرب من «الخطاب الإسلامي العلوي» الذي يرتبط أكثر بالهوية العربية. وبتقديم أنفسهم كمتوسطيين يقيم هؤلاء العلويون رابطاً مع أوربا يتعلق بكيفية سردهم للتاريخ ومنشأ الفلسفة اليونانية، والتعاون مع الصليبيين.

يلعب المسيحيون دوراً هاماً أيضاً في هذا الإنشاء حيث يتم النظر إليهم كمتشابهين ثقافياً وكمنفتحين عقلياً وكمتسامحين مثل العلويين.

يقدّم الخطاب الإسلامي العلوي، من ناحية أخرى، بشكل نموذجي التحررية العلوية بمصطلحات دينية أكثر وضمن السياق العربي الأعرض، ولكنهم ينأون بأنفسهم عن السنّة بالقدر الموجود في الخطاب النقدي العلوي في كيفية اختيار نمط حياتهم ضمن الإسلام كما يعرّفونه.

حين التحدث مع العلويين عن كيف يختلف مجتمعهم عن السنّة (عن كيف يشكّلون الحدود بينهم) توجد علامات قليلة يعود لها الناس بشكل مواظب. هذا الأمر يتعامل بشكل رئيسي مع الكيفية التي لا يخضع فيها العلويون للقواعد التي يخضع لها السنّة.

أحد الأمور التي يتم التركيز عليها هو توفر الكحول بشكل شائع وشربه بشكل علني.

الكحول متوفر في سوريا ويمكن شرب البيرة أو المشروبات الروحية بشكل شائع وقانوني في العديد من الأماكن في سوريا. ولكن العلويين يشيرون إلى أنه بالرغم من أن الكحول مسموح به في كل سوريا، فإن المجتمع العلوي أكثر تساهلاً حول الكحول ولا يعترض على شرب الكحول إلا إذا كان مفرطاً طبعاً. وبالرغم من أن شرب الكحول لا يبدو منتشراً بل إنه محدود بالمشاركة مع وجبات الطعام، أو في حفلات الشباب الصغار، ولكن الخطاب العلوي يصبح مصدراً للشعور بالفخر لأن الكحول مسموح به بصورة لا تشبه المجتمع السنّي حيث من الممكن فيه أن يشرب الناس الكحول ولكنه بالتأكيد شيء غير مسموح به طبقاً للقواعد الدينية. وهكذا فبدلاً من اعتباره شيئاً يقوم به البعض طبقاً لرغبته الشخصية، يصبح شرب الكحول رمزاً للتحرر العلوي مقابل المحافظة السنيّة.

الشيء الأكثر فخراً مع ذلك هو دور النساء والعلاقات بين الرجال والنساء. يقول العلويون أن النساء العلويات أكثر حرية في كيفية اختيار نمط حياتهن، وأنهن يشاركن في المجتمع أيضاً بدرجة أكبر بكثير من النساء السنيّات. ولكي يقاربوا هذه المسألة يتحدث العلويون عن البنات اللواتي من المفترض أن يتصرفن بشكل نمطي في المجتمع السنّي حيث يجب عليهن ارتداء الحجاب وتغطية معظم أجسامهن قدر الإمكان. وهكذا أصبح اللباس دلالة هامة على حرية البنات العلويات أي تمكنهن من ارتداء الملابس كما يرغبن وإظهار الكثير من أجسامهن بصورة نموذجية أكثر من أي مكان آخر في سوريا عدا الأحياء الدمشقية التي تضم الطبقة العليا من المجتمع.

ومرة أخرى، كما هو الحال مع الكحول، يؤكد العلويون أنه لا توجد قواعد للباس المرأة، وأن تغطية شعرها ليس مطلوباً أو ليس عادةً حتى لو كان العديد من النساء الكبيرات في العمر يفعلن ذلك. وبالفعل نظراً لبناء المجتمع السنّي كمجتمع محافظ وصارم فإن النساء العلويات يجب عليهن بالتالي عدم ارتداء الحجاب لأنه هذه الأمر يصبح رمزاً للقمع الديني للنساء.

بصورة مشابهة يكون التفاعل بين الرجال والنساء في المجتمع العلوي غير منضبط بالطريقة الموجودة في المجتمع السنّي، ولإظهار ذلك توضّح مصادري من العلويين أن وجود صديق للفتاة أو صديقة للشاب شائع جداً ومقبول بصورة لا تشبه ما هو موجود بين السنّة. وأكثر من ذلك حين يقرّر شاب وشابة أن يخطبان تكون هناك فسحة لهما أكبر بكثير مما هو موجود عند السنّة كي يتعرّفا على بعضهما البعض وعلى عائلتيهما قبل الزواج. وبشكل عام تكون العلاقة بين الجنسين غير مقيدة بشكل كبير. إن مجرد اللقاء والتحدث مع أحد ما من الجنس الآخر سهل، وحين التحدث عن هذا الموضوع تشير مصادري إلى الشارع حيث يتحدث الرجال والنساء أو يضربون مثلاً بأنفسهم عن كيف التقوا في متجر أو في مطعم. هذا الأمر مختلف جداً عما هو موجود في مجتمع السنّة الذي يصفونه بالمحافظ إلى درجة كبيرة تجاه أدوار الجنسين حيث لا يسمح للصبيان والبنات غير الأقرباء بالاختلاط، وحيث ترتّب العائلات زواجات أبنائها وبناتها.

التنوير: نحو الموجة الثانية من الربيع العربي

■ منال ريّس*

قليلة هي الأصوات التي اختارت ألا تختبئ وراء إصبع هزيلة من نظرية المؤامرة الكونية على الإسلام، وأن الغرب مهموم بكيفية تشويه صورة ديننا خوفاً منه من أن يصحو المارد مجدداً ويسيطر على العالم بمجرد صحوته، وأن داعش مجرد صنيعة مخابراتية، وأنها خرجت بأفعالها عن صورة الإسلام المتوارثة.

وقلة هي العقول التي واجهت حقيقة أن تراثنا واقع لا يخلو من تشوهات فكرية ورثناها من القرن الثاني للهجرة حين بدأت جهود المفسرين والمؤرخين وأخذناها نحن على أنها سرديات مقدسة وأن أصحابها أئمة معصومون. وعاشت هذه السرديات عائمة في وجدان يتناوب فيه الماضي مع الحاضر، وتتداخل فيه الأزمنة الثقافية، دونما فصل بين الخصوصيات الزمانية والمكانية. الحقيقة أن كثيراً مما تفعله داعش من أفعال تنفر منها الفطرة السليمة وتلفظها الطبائع المتمدنة أصوله موجودة في هذا التراث سواء بالتفاسير أو كتب الفقه أو الحديث أ السير أو تاريخ الخلافة الإسلامية.

إباحة القتل موجودة عندما أخذوا ظاهر النص فيما سموه آية السيف (التي تدعو لمحاصرة المشركين وقتلهم أينما وجدوا) ثم جعلوها تنسخ كل ما عداها من الآيات التي تدعو للين والتعارف والتعايش. آية وشواهد الرجم موجودة. شواهد قطع الرؤوس وغيرها من الطرق البشعة للانتقام من الخصم موجودة.

كل تلك الشواهد موجودة في كتب التراث، ولا يقتصر وجودها على كتب سير التاريخ الغابر، وإنما تتكرر في سيرة كل من قرأ الدين على أنه ذاك القالب الثابت الأبعاد، الناجز بنصوصه وشخوصه وظروفه، ثم خلص إلى أنه ما علينا إلا قولبة كل الشخوص والظروف في أي زمان ومكان بذات القالب بغرض إعادة إنتاج نفس الشخوص والظروف والمجتمع تماماً كشخوص وظروف المجتمع الأولي باعتباره المجتمع المثالي.

ورغم أن تعدد مناهج قراءة النصوص وتطبيقها على المسائل المستجدة في الواقع بتعدد مذاهب الأئمة إلا أن هذه المناهج تدرجت من حيث جمود وتصلب القراءة من حصر فهم الكتاب والسنة على فهم السلف وتطبيقهم دون إعمال العقل بمتغيرات الأزمنة وظروف المجتمعات (مثل مذهب ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب وعامة السلفيين)، إلى حد دور العقل بالبحث لكل فرع عن أصل (مثل القياس عند الشافعي)، إلى استقراء النصوص الكلية بغرض استلهام روح التشريع ومقصده من حيث اعتبار مصالح الناس (مثل الشاطبي الذي سار على نهج المالكية في الأخذ بالمصالح)، إلى إطلاق الاجتهاد العقلي بعد استنفاد البحث في الكتاب والسنة وأقوال الصحابة (كما عند أبي حنيفة «فأجتهد كما اجتهدوا»)، إلى تقييد العقل بالنقل وشرح النقل بالعقل باستخدمات مقدمات المنطق (مثل أبو الحسن الأشعري والغزالي).

ورغم اختلاف ترتيب مصادر التشريع عند هذه المناهج فإنها تشترك جميعاً بكون النقل متقدماً فيها على العقل وكون أوسع إطار محدد لعمل العقل هو مقاصد التشريع الخمسة. ولا يقتصر الإشكال الواقعي فقط على جمود المناهج التي حصرت فهم النصوص على فهم الأولين دون إتاحة مساحة للاجتهاد العقلي، بل إنه حتى تلك المناهج المرنة نسبياً باستقرائها النصوص حسب المقاصد قد تشكل تحدياً واقعياً عند محاولة تطبيق المقصد الأول وهو «حفظ الدين»، وهنا قد تقع التجاوزات التي قد تبلغ حد التطرف الكارثي تحت غاية حفظ الدين إذا ما نصب بعض البشر أنفسهم قيمين على الدين وتسلطوا على غيرهم لتقويم علاقة الناس بربهم.

وربما كانت أقوى محاولة للخروج من هذا القالب في النهج الذي تبناه المأمون بتقديم العقل وسمي أتباعه بالمعتزلة نسبة - في إحدى الروايات - إلى الحادثة التي جرت بين واصل بن عطاء والحسن البصري، عندما اعترض الأول على رأي البصري القائل بأن مرتكب الكبيرة كافر، وارتأى ابن عطاء - ربما مدفوعاً بفطرة الظن بأن رحمة الخالق أوسع من هكذا حكم متشدد - أن مرتكب الكبيرة منزلته بين المنزلتين - أي لا مؤمن ولا كافر، فأمره البصري «باعتزال» مجلسه. وقد أسست هذه النظرة لمنهج يعتمد على العقل والفطرة السليمة بقياس الأحكام الشرعية على ما يقتضيه العقل والحكمة في إثبات عدل الله، حيث يرى منتهجو هذا النهج أن «الله لا يفعل إلا الصلاح والخير، ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد» بما هو ألطف وأصلح حسب ما يقتضيه العدل.

وبين عصر المأمون وعصرنا هذا تتشابه الظروف السياسية من حيث التوسع الحضاري واندماج المسلمين في مجتمعات تشهد اندماج لثقافات متنوعة ومتغايرة، يشكل معه النهج النصي التقليدي النقلي بجموده عائقاً للحاجات العقلية بحيث أصبح العقل المسلم اليوم تعيش فيه منظومات معرفية متناقضة و«يجد نفسه مضطراً إلى استبطان الفكر التراثي لتأكيد هويته، والفكر الغربي لتحقيق فاعليته» على حد تعبير لؤي صافي في كتابه (إعمال العقل).

وكما ظهر في عصر المأمون المنهج الذي يقدم العقل ويستقرئ النصوص حسب ما تقتضيه الحكمة والعدل، فإنه يمكن رصد إحدى المحاولات الشبيهة لقراءة متجددة للنصوص في عصرنا الحالي - ولمواجهة تحديات القراءة المتطرفة ونتاجاتها الكارثية كما تطبقها فرق مثل داعش - في تيار التنوير الإسلامي الذي نشر مذكرة رسالة التجديد فيه الدكتور محمد حبش. وجاء فيها حول تجديد أصول الاعتقاد والفقه أن «الثابت الأول في مسائل الاعتقاد هو أن لله سبحانه صفات الكمال من العدل والإحسان والرحمة، وكل نص يوهم الظلم أو الانتقام أو الاستهزاء أو المكر يجب تأويله مهما كان هذا التأويل متعسفاً، فحقيقة عدل الله أكبر وأولى من مراعاة ظاهر التنزيل». وكمثال على تأويل النصوص عند تطبيق ثابت كمال عدل الله أوردت الرسالة أن «الخلود في النار المذكور في القرآن للإشارة إلى طول العذاب، أما القول بالخلود المطلق فهو يتناقض مع الحكمة في الخلق والرحمة في الخالق ولا يمكن عقلاً ولا ذوقاً قبول الخلود في العذاب مقابل بعض التفريط في الدنيا، مهما كان هذا التفريط، والخلود في العذاب يتناقض تماماً مع رحمة الله وإحسانه وعفوه».

وفي بوستات متلاحقة على صفحته على الفيسبوك أورد د. حبش بعض المسلمات كأمثلة تدرس لطلاب الفقه و«عجب لمن يدرس هذه المعارف كيف لا يصير داعشياً». من هذه المسلمات حديث: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله...»، وعلق عليه قائلاً «أشهر الأحاديث التي نعلمها لأبنائنا - الرابع في الاربعين النووية. روايته كنص مطلق في الزمان والمكان= داعش والقاعدة وطالبان». وحديث «قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، وعلق عليه «وهو يوجب هدم المساجد التي بنيت فيها القبور. ويكفي لنشر أجيال من الكراهية».

والمراقب لمتغيرات واقعنا سيرى أننا عوامل مثل ثورات الربيع العربي والتواصل الاجتماعي المكثف عبر تكنولوجيا الاتصال الإنترنت وتنامي ردات الفعل الكارهة للممارسات الداعشية الشاذة، وغيرها من العوامل الحضارية التي ستدفعنا أكثر نحو قراءة النصوص قراءة مختلفة متجددة متسقة مع نزوعنا الفطري ليس فقط لما هو أكثر عقلانية بل أيضاً لما هو أكثر إنسانية وأكثر تمدنا». هذه المبادئ: العقلانية - كعلاقة ناظمة للإنسان بالوجود -، والإنسانية - كناظم لعلاقة الإنسان بالإنسان وبالكائنات -، والمدنية - كعلاقة ناظمة للإنسان بالمجتمع -، والفردانية - كعلاقة ناظمة للإنسان بنفسه - (وكلها علاقات أرضية - أرضية) إذا نظمت ضمن منظومة منهجية لاستقراء النصوص بحيث تؤخذ كمسلمات بديهية تتقدم على باقي المقاصد والمصادر، فإن هذه القراءة ستخلصنا في آن واحد من: القراءة الأصولية التي تنتج اعتقادات شاذة وممارسات همجية كالتي تمارسها داعش، ومن ردة الفعل العنيفة المقابلة والتي ترى أن الحل باجتثاث الدين - كونه مفرخة الإرهاب - من المجتمع، ومن التشتت والاضطراب المتولد عند العامة الواقعة بين طرفي هذين الطيفين، وقد تمهد لمرحلة من الفاعلية المجتمعية والحضارية قد تعرف لاحقاً بعصر «التنوير العربي» الذي قد يكون المرحلة الثانية من موجات الربيع العربي.

* باحثة سورية في المركز السوري للدراسات والأبحاث (www.dirasat.ws)

«لا إكراه في الدين» عمل للفنان منير الشعراني

عزيزة هارون 1923 – 1986

■ ياسر مرزوق

ولدت عزيزة هارون في حي القلعة في مدينة اللاذقية عام 1923 لآل هارون أعرق أسر المدينة، والتي لعب رجالها دوراً هاماً في تاريخها، أمثال الراحل «منح هارون»، والدها الحاج عمر هارون الذي كان يعمل بالتجارة، ووالدتها من آل موسى من «بانياس»، وقد درست الابتدائية في مدرسة الراهبات، ولم تكمل تعليمها بسبب زواجها المبكر في الرابعة عشرة من عمرها بابن عمتها، وكان يكبرها بعشرين عاماً، فتلقت علومها في اللغة والقرآن الكريم على يد الشيخ «سعيد مطرجي» داخل منزلها، وانكبت على قراءة كل ما تقع يدها عليه من كتب أو مجلات فتعلقت بالشعر وهي صغيرة، ولم يعمر زواجها أكثر من ستة أشهر، عادت بعدها إلى منزل الأسرة لتبدأ علاقتها مع الشعر .

نشرت قصيدتها الأولى في مجلة الصباح التي كان يصدرها عبد الغني العطري في الأربعينات، ونشرت بعد ذلك قصائدها في مجلة «القيثارة» الصادرة عام 1946 مدة سنة كاملة، وفي مجلة «التمدن الإسلامي» ومجلة «أصداء» التي كان يصدرها الأديب الكبير «شكيب الجابري» وفي «الأديب والآداب» وغيرها، وكانت أولى قصائدها بعنوان «خمرة الفن» قالت فيها:

أحناناً تهمي سليمى عليا حفظ الله نور ذاك المحيا
ابذلي العطف والحنان لغيري أنا نبع الحنان يا مقلتيا
إن حزني لا كالهموم وجوماً هو يبدو مقدساً عبقريا
إن بكت مقلتي وعصّ فؤادي بعث للحن ساحراً علويا

طلب منها الأديب «يوسف عبد الأحد» أن تروي له سيرة حياتها ونشأتها فأمسكت القلم وكتبت: «تألمت وأغنتني الآلام فأحسست بآلام الآخرين، وأحببت آلامهم، تفتحت للألم قبل أن أنفتح للحياة، وكافحت في سبيل شعري الذي أسكب فيه أحلامي، وآمالي وحبي، والذي تبدو فيه حياتي كلها منذ فجر صباي، الذي تألم في غربة مريرة».

تزوجت مرة ثانية الشاعر نذير الحسامي وطُلّقت منه، ثم مرة ثالثة من السياسي قدري المفتي فطُلّقت أيضاً، ربما لأنها لم تستطع أن تكون أماً ولم تنجب، وقد سبب لها هذا الفشل آلاماً نفسية حادة، تجلت في ديوانها الذي طبع بعد وفاتها بالذات في قصيدة تحمل عنوان «نداء الأمومة» تروي فيها أنها سمعت ذات يوم طفلةً تناديها «ماما» فأثار هذا النداء شجونها، وجدد آلامها .

أنا ماما يا بنيَّة
هكذا ناديتني
فانتشت بيَ آه
في كل حنيَّة
يا سخيّة
أنتِ أغليتِ الهديّة
أنت أترعتِ كؤوسي
بالنداءات النديّة
فأنا ظمأى إليها
يا بنيّة

ويرى الناقد د. عبد السلام العجيلي أن الآلام التي تمرست بها الشاعرة عزيزة هارون، تحولت بفضل موهبتها إلى عناصر خلق وإبداع. فحرمانها من الولد - على الرغم من زيجاتها الثلاث- كان هو الباعث على غنائها للأطفال في أشعارها، لا غناء بكائياً تندب فيه حظها وحسرتها من الحرمان، بل على العكس من ذلك كان أناشيد محبة وعطف وإشفاق.

في مقدمة ديوانها الصفحة 27 تذكر الأديبة «ألفة الادلبي» أنه خلال مؤتمر الأدباء العرب، الذي عقد في بلودان صيف عام 1956 شاركت عزيزة في أحد الأمسيات الشعرية ببعض مقطوعاتها، مع عدد من شعراء الوطن العربي، وسئل عقب الأمسية، الأديب الكبير ميخائيل نعيمة، عمن كان أشعر الشعراء في تلك الأمسية، فأجاب دون تردد إنها عزيزة هارون، وأيد قوله الكبيران أحمد رامي وابراهيم العريض، وفي اليوم التالي التقت عزيزة عميد الأدب العربي «طه حسين»، وحين عرف أنها شاعرة، طلب سماع شيء من شعرها، وبعد أن أصغى لمقطوعتين من شعرها، أثنى عليها ووصف موهبتها بأنها، أصيلة تنبع من ذات نفسها، وأشار إلى تأثرها بالشعر الفرنسي.

في عهد الوحدة بين سورية ومصر اختيرت عضواً في «لجنة الشعر» بالمجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، وذلك بناء على اقتراح من الشاعر السوري أنور العطار، كما ساهمت في تأسيس اتحاد الكتاب العرب عام 1969 .

نشطت عزيزة هارون مثل غيرها من الأديبات في إنشاء روابط وجمعيات تهتم بشؤون المرأة والثقافة، فكانت وجهاً بارزاً في الندوة الثقافية النسائية، وفي «منتدى سكينة» الذي افتتحته «ثريا حافظ»، في منزلها بحي المزرعة الدمشقي والذي ركز على قضايا وطنية جوهرية وشارك به كبار الشخصيات منهم: إبراهيم كيلاني.. عبد السلام العجيلي.. فخري البارودي.. مصطفى الشهابي.. وعبد الكريم اليافي وألفة الأدلبي..

عملت عزيزة هارون في سنواتها الأخيرة موظفة بوزارة الإعلام السورية، ولم تتوقف عن النشر في الدوريات العربية كالمعرفة، والموقف الأدبي، وفكر، والعربي .

توفيت في 12 شباط 1986، في مشفى «الشامي» بدمشق، بعد معاناةٍ طويلة مع المرض، وشيعت إلى اللاذقية حيث ووريت الثرى فيها، وبعد رحيلها قامت الندوة الثقافية النسائية في دمشق بطبع ديوانها عام 1992 وأعدته الشاعرة عفيفة الحصني، وجاء في إهداء الديوان للشاعرة عفيفة قائلة:

«لقد عكفت على قراءة هذه القصائد شهرين.. ما كتبته وما نشرته في الصحف والمجلات وما احتفظت به عندي، وما احتفظ به الأصدقاء من مخطوطات وأخص بالذكر السيدة الأديبة الفة الإدلبي والأديبين يوسف عبد الأحد وعبد اللطيف أرناؤوط وشكّلت القصائد كلها ليسهل تناولها للناس جميعاً وصنفتها في ثلاثة أبواب الأول الأرض والوطن، والثاني الإنسان والثالث الغزل، واستعذبت ما بذلته من جهد لأن في شعرها وفنها خدمة للمجتمع العربي وبخاصة للمجتمع الإنساني بأسره».

وجاء في تقديم الأديب عبد اللطيف أرناؤوط: «عزيزة هارون واحدة من أبرز أصواتنا النسائية التي دافعت عن انسانية المرأة وهي ضحية من ضحايا العادات والتقاليد في مجتمعنا الشرقي، وهي رائدة من رائدات الدعوة إلى تحرير المرأة، تلك الدعوى التي رسمت أولى خطاها ملك حفني ناصف، وهدى شعراوي، ومي زيادة».

قال عنها الشاعر الراحل علي الجندي في كتاب «خمسة أيام في دمشق»: عزيزة هارون شاعرة مهذبة وديعة عالية التربية الاجتماعية، نشأت في بيئة ممتازة خلعت عليها كل صفات الامتياز، أنيقة حساً ومعنى، أنيقة في صورتها وهندامها وكلامها وكل مل يمكن أن يكون في حواء.

ولابد في الحديث عن عزيزة هارون من ذكر قصة حب الشاعر الكبير «بدوي الجبل» لها يقول الدكتور عبد السلام العجيلي في كتابه محطات في الحياة: ويقطع كثير من المتأدبين في سورية بصورة خاصة بأن واحدة من أجمل قصائد الشعر العربي في عصرنا الحاضر وهي قصيدة اللهب القدسي، إنما استلهمها شاعرها الكبير من عاطفة حملها ذات يوم لهذه الشاعرة، وقد زاد تأكداً من ذلك أن اسم ملهمة القصيدة (نعم) الذي ورد فيها حين نشرت في العدد الأول من مجلة شعر عام 1957 قد أزيحت عنه التعمية عندما ظهر ديوان الشاعر الكبير في عام 1978 فأصبح عزة .

وترتبط قصة الحب أيضاً بالعلاقة بين أم كلثوم والشاعر السوري «بدوي الجبل» الذي كان الشاعر الوحيد الذي رفض رغبة أم كلثوم في تغيير عنوان قصيدة له أرادت ان تغنيها شرط أن يغير عنوان القصيدة من «شقراء» إلى «سمراء».. سائر الشعراء كانوا يغيرون في قصائدهم وفقا لطلب أم كلثوم إرضاء لها، أما بدوي الجبل فرفض مضحيا بذلك الخلود الذي كان سيكسبه اياه غناء أم كلثوم لقصيدته. كانت حجته أنه نظم القصيدة في فتاة سويسرية شقراء. لكن الكاتب يكشف عما اسماه «الحقيقة» وهي أن الشاعر نظم القصيدة لشاعرة سورية شقراء كان يحبها وهي عزيزة هارون وصعب عليه تغيير عنوان القصيدة.

تاريخ من لا تاريخ لهم
يوميات سجين

■ أحمد سويدان
1991 - 1994

اليوم التاسع والعشرون 11/29

الساعة الآن الثامنة والنصف مساء، ومنذ لحظات أنهى، في إذاعة لندن، الإذاعي المشهور، جميل عازار استعراض شريط الأنباء. البرد هذه الليلة شديد وقد سهرنا بعد العشاء وشربنا زهورات أنا وأبو أيمن وخلف وعائد. طبعاً الحديث يدور حول إخلاء السبيل.

جرى عام 1988 نفس الحماس لقرب صدور العفو، إن أحداً لا يصدق أن هذا النظام الذي يسوق الناس من جهة بقوة الإرهاب إلى السجون، ومن جهة ثانية بقوة الانتفاع إلى العراضات والتبجيلات .. يمكن أن يخلي سبيلنا.

اليوم الثلاثون 11/30

لا زالت الزيارات متوقعة بين يوم وآخر . الأولاد الذين لهم والد سجين ولكنه حي ينتظرون، لكن الأولاد الذين أعدم أبوهم ماذا ينتظرون؟ .. الأمهات التي تنتظر لازال لديهم أمل، أما الأمهات اللواتي فَقَدْنَ أولادهن مات عندهن الأمل . ولذا عندما نخرج، ولا يخرج غيرنا لأنه دفن في المقابر الجماعية .. سيكون هناك بكاء وعويل.

النظام يقيم في هذه الأيام مواكب تنضح بالكذب والرياء . وهي مواكب شبيهة بمواكب البيعة لمعاوية .. والشعب في قعر القهر، وهو لا يمكن أن يتراجع عن نهجه وعن ظلاماته، ولا بد من فتح السجلات يوماً. إن سجل التاريخ مليء بالبطش وبالمعارك غير المتكافئة بين الحق والباطل.

على باب الجناح جاء سجين وضابط سابق بزيارة خاطفة، وطلب غسان الجباعي، وهو موقوف منذ أكثر من ستة عشر عاماً نقل المعلومات التالية:

1 - إن الذين أُخلي سبيلهم من بعث العراق منذ أيام هم مقدمة لقائمة ملأى تضم كافة الفئات السياسية.

2 - قوائم إخلاء السبيل جاهزة، وقد وصلت إلى الشرطة العسكرية.

3 - سيتم إخلاء سبيل اللبنانيين والفلسطينيين إلى جانب البعثيين والشيوعيين ومن حكموا وانتهت أحكامهم.

4 - أما الموعد فقد حدده الأربعاء أو الخميس.

وهذه المعلومات من فم مدير السجن مباشرة. كنت طبّاخ المهجع هذا اليوم وأكلنا رزاً وبامياء .

شهر كانون الأول / اليوم الأول 12/1

أذاعت إذاعة عمان أن عفواً عاماً سيصدر قريباً في سورية، والمناسبة تجديد انتخاب حافظ الأسد . قال البعض إن الإذاعات في لبنان قالت مثل هذا عام 1985، هذا لا يبرهن عن شيء ولا يؤكد أمراً. النظام قاس وإرهابي.

اليوم الثاني 12/2

يوم جديد تتوارد الصحف علينا، ويتثاقل عالم الانتظار ويختلط اليأس بالأمل، ولا من زيارة. عمّ الصمت وثَقُلَ، وسكون متأجج باللهفة . عندما يتأمل أحدنا نفسه، ويحدق في هذا الانفصال عن العالم لمدة عشر سنوات، وعن الناس والشوارع يصاب بالذهول . الناس يكبرون، والهرم والشيخوخة يسيران مسرعان .. أليس التأمل في ذلك يجعل المرء هلعاً وخائفاً؟ ..

اليوم الثالث 12/3

هذا الضجيج الذي يبعث على التقزز وهذا الولاء وهذه البيعة للواحد الأحد، الذي لا قبله ولا بعده، وهذا الإهتراء الذي يلف الكلمات الصدئة المنطلقة على ألسنة أعضاء مجلس الشعب، والشعب -يشهد الدهر- لا حول له ولا قوة، وتتكرس ظواهر المكر والدهاء والقهر والسفاهة جميعها كما أرى ترمي إلى ما يلي:

- التغطية على الجولة الثانية من المحادثات بين سورية وإسرائيل فلا يزال الإعلام السوري يريد تعتيماً على هذه المسألة. بعكس الوفدين: - الفلسطيني والأردني، ولا يريد إشراك أحد، أو التكلم حول هذه المسألة.

- وقد أغرق الشارع السوري منذ منتصف الشهر الماضي باليافطات والعراضات في الوقت الذي تعتدي فيه إسرائيل على الجنوب اللبناني.

- التغطية كذلك على الانتفاضة التي ترفع رايات النضال خفاقة، وهي أرادت أم لم ترد تدعم الوفد الفلسطيني المفاوض، في الوقت الذي نرى فيه ضآلة وتفاهة الوفد السوري، الذي يريد السرية التامة للمفاوضات لأن حافظ الأسد يريد أن يكون ليلاً ونهاراً بطل العرب . والانتفاضة تمس البطل والرمز، ولذا يجري التعويض عن ذلك بالضجة حول البيعة والرمز والتأليه.

- التغطية على حالة الحصار المضروبة على العراق.

اليوم الرابع 12/4

أن تخلو هذه الذكريات والمذكرات من ذكر أعظم كاتب قصة مواجهة في الوطن العربي زكريا تامر، فإن الأمر يكون غير طبيعي . وذكر صديقه في التشرد والتسكع محمد الماغوط من ضرورات هذه المرحلة فهما مواجهان عنيدان للاستبداد، ولكن الماغوط لأمر ما، تغاضى عن النظام مع أنه قال عن سجون عبد الحميد السراج بأنها كانت نبيله بالمقارنة مع السجون الحاضرة التي تدفعها السفالة والحطه. المناسبة لهذا الكلام قراءتي مرتين لمجموعة: «ربيع في الرماد» حملتني فنياً وإنسانياً إلى أحياء العاصمة: الشاغور، الميدان، قبر عاتكه، باب الفراديس، باب الصغير، العمارة، القيمرية وإلى نهرها بردى. وأنت تقرأ هذه القصص تحنو عليك رموزها، وأجواؤها الرصاصية الثقيلة، وجملها القصيرة المعبّرة، وتشابيهها الملأى دمعاً ودماً.

إن قصص زكريا تامر تحتضن السجين، وهي للإنسان الجاد والمسؤول وتنبع من هم القصة العالمية، وهي تحمل هماً تجاه السلطة السياسية القائمة في هذا الوطن الحزين. فقصة « أبو فهد « تبقى في الذاكرة، ويعيد المرء قراءتها .. فيها الفقر والحرمان السكر والتخييل..

لم أقرأ أي دراسة نقدية تحلل أبعاد القصة. إن زكريا تامر من أوائل القصاصين العرب الذين وقفوا موقفاً صارماً من السلطة المستبدة المطلقة، وهو ما يحاول أن يحلله الآن العديد من السوسيولوجيين العرب، وخاصة عندما يتناولون مسألة الديمقراطية. ولماذا هي بهذا الضعف وهذا التزييف؟ ..

إنني مأخوذ برواية ليمغ وقد وصلت إلى أواخرها وهي تدل على الموهبة الفذة .. هي غوص في التفاصيل، وسلسة في طريقة العرض.

هذه السلسلة بالتعاون مع:

كلنا مواطنون
We are all Citizens

المواطنــة الرقمية

■إعداد المحامي فارس حسّان

في بحثنا عن تعريف المواطنة لابد من الإشارة إلى علاقات على ثلاث مستويات لهذا التعريف هي «المواطن والدولة، المواطن والمواطن، المواطن والفضاء الذي يعيش فيه»، وفي الحديث عن المواطن والفضاء الذي يعيش فيه نذكر ما قاله الصحفي الفرنسي «دافيد كولومبليد»، في كتابه:«المواطن الرقمي»: يعيش العالم، حالياً، منعطفاً مهماً وحاسماً وسريعاً في تاريخه كله. إنه يتجه نحو «نمط حضاري» جديد، عبر تبنّي ثقافة الانترنت «الإمبراطورية الرقمية»، التي وضعت الثقافات الإنسانية، السائدة منذ آلاف السنوات، في مواجهة تحديات حقيقية، فمختلف قطاعات النشاط الإنساني تعرّضت إلى هزّة حقيقية، وأنه ينبغي على كل قطاع منها، أن «يجابه على طريقته»، ما يسميه المؤلف «الاجتياح الرقمي». ويشير إلى أن التحولات التي حدثت كبيرة و«نوعية».

في زاويتنا اليوم عرضٌ للمواطنة الرقمية، على اعتبار الجانب الايجابي للثورة الرقمية التي تفتح الآمال عريضة في منظور المستقبل. ذلك على أساس أن الانترنت هو الثقافة للجميع، وحرية التعبير للجميع على قدم المساواة.

تعريف المواطنة الرقمية

المواطنة الرقمية بحسب المنهج الأسترالي تعني تزويد الطالب بترسانة من المهارات في مجال استخدامات تويتر والتدوين الإلكتروني والفيس بوك، إضافة إلى إكسابه القدرة على استخدام بعض المواقع الإلكترونية الشهيرة لغرض التعلم والدراسة. منهج المواطنة الرقمية يعلم الطالب كذلك مهارات محورية مثل مهارات البحث، والتواصل، ومهارة حل المشكلات، إضافة إلى إثراء معرفته بثقافة بلاده وتاريخها، وتعزيز إيمانه بقيم الحرية والعدالة والديمقراطية.

كما تعرف المواطنة الرقمية بكونها مجموع القواعد والضوابط والمعايير والأعراف والأفكار والمبادئ المتبعة في الاستخدام الأمثل والقويم للتكنولوجيا، والتي يحتاجها المواطنون صغاراً وكباراً من أجل المساهمة في رقي الوطن. فالمواطنة الرقمية باختصار هي توجيه وحماية، توجيه نحو منافع التقنيات الحديثة، وحماية من أخطارها.

وتعرفها الموسوعة الاجتماعية بوصفها:القواعد السلوك المعتمدة في استخدامات التكنولوجيا المتعددة، مثل استخدامها من أجل التبادل الإلكتروني للمعلومات، والمشاركة الإلكترونية الكاملة فى المجتمع، وشراء وبيع البضائع عن طريق الإنترنت، وغير ذلك. وتعرف أيضا بأنها القدرة على المشاركة فى المجتمع عبر شبكة الإنترنت، كما تعرف المواطن الرقمي بوصفه المواطن الذى يستخدم الإنترنت بشكل منتظم وفعال.

مبادئ المواطنة الرقمية:

المساواة الرقمية:

لا بد للمساواة الرقمية من توفير البنية التحتية بالتساوي بين جميع المستخدمين، وتوفير البنية التحتية من أولى أولويات الدولة الوطنية، فتوفير الحقوق الرقمية المتساوية ودعم الوصول الإلكتروني هما عماد المساواة الرقمية، ومن ثم فإن الإقصاء الإلكتروني يجعل من العسير تحقيق النمو والازدهار حيث أن المجتمع يستخدم هذه الأدوات التكنولوجية بزيادة مستمرة. وينبغي أن يكون هدف المواطن الرقمي هو العمل على توفير وتوسيع الوصول التكنولوجي أمام جميع الأفراد. ولا بد أن يتنبه المستخدمون إلى أن الوصول الإلكتروني قد يكون محدوداً عند بعض الأفراد، ومن ثم لا بد من توفير موارد أخرى. وحتى نصبح مواطنين منتجين، لا بد أن نتحلى بالالتزام من أجل ضمان توفير آليات وتقنيات الوصول الرقمي إلى الجميع بلا استثناء.

الديمقراطية الرقمية:

هناك اتفاق في المجتمع البشري على أن الديمقراطيات القائمة، الليبرالية منها كما الشعبية، التمثيلية منها، كما المفروضة «قسرا» من فوق أصبحت بعيدة عن استيعاب قيم التشاركية، أو المساهمة، أو استقطاب الجماهير. وهذه الأخيرة لم تعد ترضى بأن تبقى مجرد بطاقة انتخابية، يدلى بها بين الفينة والأخرى لفائدة هذا الحزب أو ذاك، بزمن محصور، سرعان ما ينقضي لتنقطع فيما بينهما، طيلة ما بين الفينتين، علاقة المساءلة أو المحاسبة أو المتابعة أو ما سوى ذلك.

فالديمقراطية الرقمية تنقل فضاء الانتخاب والمشاركة في القرار من الصندوق إلى الشبكة، فهي تقدم الطريق الأسهل للمواطن لمساءلة ممثليه عبر التواصل الالكتروني، كما تتيح ديمقراطية المعلومة وتوفيرها للجميع بالتساوي.

الحقوق والمسئوليات الرقمية:

كما تحدد الدول ما لمواطنيها من حقوق وواجبات في دساتيرها، كذلك توجد حزمة من الحقوق التي يتمتع بها «المواطن الرقمي»، حيث يتمتع المواطن الرقمي بحقوق الخصوصية، وحرية التعبير وغيرها، ولا بد من دراسة ومناقشة الحقوق الرقمية الأساسية حتى يتسنى فهمها على النحو الصحيح في ظل العالم الرقمي. ومع هذه الحقوق تأتي الواجبات أو المسئوليات، فلا بد أن يتعاون المستخدمون على تحديد أسلوب استخدام التكنولوجيا على النحو اللائق. وبناء عليه، هذان الجانبان بمثابة وجهان لعملة واحدة، فلا بد من تفعيلهما معا حتى يصبح كل مواطن رقمي مواطناً منتجاً ومشاركاً فعالاً

المواطنة الرقمية والثقافة

تتيح المواطنة الرقمية لأي مواطن أن يصبح منتجاً للثقافة، بحيث تسهل عليه أن ينوّع من مدخلاته الإبداعية الشخصية باستعمال التكنولوجيات الرقمية الحديثة، وأن يدلي برأيه في أيّ منتوج ثقافي آخر، بل وأن يقدّم للناس منتوجه الخاصّ سواء أكان فيلما قصيرا صوّره هو ويضعه في اليوتيوب، أم معرضا تشكيلياً ينزّل لوحاته في وسائل التواصل الاجتماعي أو مدونة إبداعية يدعو الناس إلى قراءته إلكترونياً وبهذا، بدأ الفعل الثقافي يتجاوز الحدود التي كانت تحدّ من انطلاقته، وصار فعلاً عامّا تشترك فيه أغلب الفئات الاجتماعية دون وصاية من هذه الجهة أو تلك، وامتلك عافيته الفكرية بعيداً عن كلّ الدعوات الأصولية التي تحاول تدجينه، ومكّن الناس من الإحساس بقدراتهم على أن يكونوا فاعلين ثقافيين بامتياز، أي منتجين وموزّعين ومستهلكين في الآن نفسه، وأن تكون الصناعة الثقافية لديهم صناعة حرّة لا تخضع إلاّ للاتجاهات الجمالية ولمدى قدرتها على جلب انتباه المستهلكين في أيّ مكان من الأرض.

في الختام تحمل المواطنة الرقمية في معطياتها إذا ما تم التعامل معها استناداً للمبادئ القانونية للمواطنة، دستوراً لمجتمع المي جديد تسوده الحرية والعدالة والسيادة والثقافة المدنية.

جهاد فاضل:
أم كلثوم.. نغم مصر الجميل

■ ياسر مرزوق

يبدو عنوان الكتاب غريباً عن قراءاتنا حيث اعتدنا تقديم كتب تعنى بالسياسة وعلم الاجتماع والتاريخ والفلسفة، أما كتابنا اليوم فهو عن أم كلثوم، التي قال عنها «يوسف السباعي»: إنها فنانة الشعب التي أعطت فأجزلت العطاء، وقدمت فبذلت بسخاء، ومن خلال صوتها أذابت روحها، ووهبتها لخير وطنها، عاشت عدة أعمار فنية، كانت فيها همزة وصل بين أجيال وأجيال، إنها نسيج نادر لا يجود به الدهر إلا بعد أجيال وأجيال، وسيبقى فن أم كلثوم تراثاً خالداً تتغنى به الدنيا، وسيظل مشعلاً هادياً يضيء طريق الفن العربي.

كتابنا اليوم يعنى بالسياسة أيضاً فهو يلقي الضوء على علاقة الفن بالسياسة في الأنظمة الشمولية، فعلى مدى ثماني عشر عاماً من حكم الرئيس عبد الناصر لمصر، عوملت أم كلثوم بحصانة لا تعطى للأميرات حتى، حيث منعت وسائل الإعلام من التعرض لحياتها الخاصة، في العهد الملكي كانت الصحافة المصرية تتناولها بحرية كاملة كما تتناول أي فنانة أخري.. أما بعد الثورة فقد عوملت أم كلثوم كشخصية استثنائية رفيعة المقام إن لم نقل كملكة من الملكات.. أو كامرأة قيصر حسب تقاليد روما القديمة.. وعندما تزوجت من الدكتور حسن الحفناوي تدخل الرئيس عبدالناصر شخصياً لمنع الصحف المصرية من أن تنشر تصريحاً أو تلميحاً أي خبر عن زواجها. .

أم كلثوم امرأة من هذا الوطن

استطاعت بقوة شخصيتها بالدرجة الأولى أن تتربع على القمة نصف قرن بطوله أو يزيد لا تزحزح العواصف لها مركزا، ولا تغير الأحداث لها مبدأ، ولا تنتقض التناقضات في عالمنا من مجدها مجداً، امرأة استطاعت قبل الجميع أن توحد العرب وأن تربط ما بين قلوبهم بصوتها النادر الرخيم، وقد وعى منظرو الثورة المصرية أهمية أم كلثوم كرمز وطني، في حين لم تمهل الثورة ليلى مراد خمس أعوام إلا وأجبرتها على الاعتزال ونفت نور الهدى والعديد من الفنانين والمبدعين بحجة التأميم حيناً وبالعلاقة مع العائلة المالكة حيناً آخر، بقيت أم كلثوم رمزاً دفع مراسلاً أمريكياً في القاهرة للقول «شيئان لا يتغيران في مصر هما صوت أم كلثوم والأهرام» .

أم كلثوم التي تربعت على عرش الغناء العربي دون منازع عاصرت سبعة حكام لمصر فقد ولدت في عصر عباس حلمي الثاني، وبدأت مسيرتها الفنية طفلة في نهاية عهده، ومن بعده جاء السلطان حسين كامل حاكما لمصر، ثم الملك فؤاد الأول وخلال عهده انتقلت أم كلثوم إلي القاهرة، وبعدها جاء ابنه الملك فاروق الأول، وفي عهده تربعت أم كلثوم علي عرش الغناء.. وعندما قامت ثورة يوليو1952 ، عاصرت أم كلثوم ثلاثة رؤساء لمصر، هم: محمد نجيب وعبدالناصر والسادات الذي توفيت في عهده عام1974.

ومن المؤكد أن سيرة حياة أم كلثوم، هي سيرة وطن في مراحل تاريخية امتدت لعشرات السنين في القرن العشرين، وشهدت هذه السنوات تحولات هائلة في المسارات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وانتقلت مصر والمنطقة العربية من حال إلي حال، ولم تكن أم كلثوم بعيدة عن كل هذا، بل انغمست انغماسا مباشرا في أحداث وتفاعلات سياسية هامة أكدت علي تمازج الفن بالسياسة.

أما عن الحياة الشخصية لأم كلثوم يقول جهاد فاضل: «يمر الباحثون مروراً سريعاً على حياتها الخاصة، وكأن أم كلثوم لا يجوز الاقتراب من حياتها الخاصة إلا بورع واحترام، فهي رمز لا إنسان يمكن معالجة كل ما يتصل به بل هي سر من الظلم جعل الشيفرة الخاصة به مباحة أمام الجمهور العريض لأن في ذلك ما يسيء إلى ذكرى القديسة الكبيرة الراحلة».

ويضيف: «ويبدو أن السنوات التي انقضت على وفاتها زائد سنوات حمايتها من عبد الناصر وفقدان شهود زمن شبابها وكهولتها من شأنها أن تحجب إعادة فتح ملفها العاطفي على الخصوص إن لم تمنع طرح أسئلة بصدده».

عن زواجها الأخير من الدكتور «حسن الحفناوي» يذكر فاضل قصة واضحة الدلالات: نقل الكاتب رواية عن البكباشي موفق الحموي الذي كان مدير الرقابة، أنه عندما اتصل به عبد الناصر ليبلغه هذا الأمر سأل الرئيس عما إذا كان الخبر شائعة من الشائعات؛ فرد عبد الناصر «لا الخبر صحيح، غير أن أم كلثوم اتصلت بي وأخبرتني عن زواجها، ولكنها طلبت مني منع نشر الخبر في الوقت الراهن، وهذا كل شيء، وهذا أقل ما أستطيع فعله لها».

وقد أورد مثلا آخر في هذا المجال؛ فقال: إنه عندما وقعت مرة في يد أحد المسؤولين المصريين «سامي شرف» أوراق خاصة تتصل بالصحفي المصري الراحل مصطفى أمين، منها عقد زواج رسمي بينه وبين أم كلثوم ورسائل من أم كلثوم تخاطبه فيها بعبارة «زوجي العزيز»، حمل المسؤول هذه الأوراق على الفور إلى الرئيس جمال عبد الناصر، وأضاف «أمسك عبد الناصر بالأوراق ونظر إليها وابتسم، دون أن يعلق بشيء، ثم وضعها في جيبه. ومن يومها لم تظهر هذه الأوراق على الإطلاق ولم يطلع أحد عليها».

ويضيف المسؤول المصري الذي روى هذه الحكاية أنه لا يعلم ما الذي فعله عبد الناصر بهذه الأوراق. وأغلب الظن أنه أخفاها تماما، ولم يتحدث فيها لا إلى أم كلثوم ولا إلى سواها، معتبرا إياها «شأنا خاصا لا يجوز لأحد أن يتدخل فيه».

من ناحية أخرى، أفرد فاضل مساحة كبيرة لحياة أم كلثوم المهنيّة، وطريقة تعاطيها مع من عملت معهم من شعراء وملحنين، وكيفية انتقائها لأغانيها. يحيل هنا إلى مثال «أراك عصيّ الدمع» لأبو فراس الحمداني، تلك القصيدة التي حرصت على غنائها ثلاث مرات، في مراحل متباعدة من حياتها، وبألحان مختلفة: إذ لحنها أولاً عبده الحامولي (1926)، ثمّ زكريا أحمد منتصف الأربعينيات، فرياض السنباطي (1964). ويلفت فاضل إلى دقة أم كلثوم في اختيار كلمات أغانيها، وخصوصاً تلك التي كانت تنتقيها من التراث العربي، وكيف كانت تتدخل في تعديلها إضافةً إلى مشاركتها الملحنين، كالسنباطي، في بعض التعديلات الموسيقية... كأنّها أضحت مطربة وشاعرة وملحنة في آن واحد.

لقد أدركنا ما كان ينقصنا كي نحيا بسلام. فماذا عنكم؟
ريف سوريا - 2014 | تصوير: باسل حسو

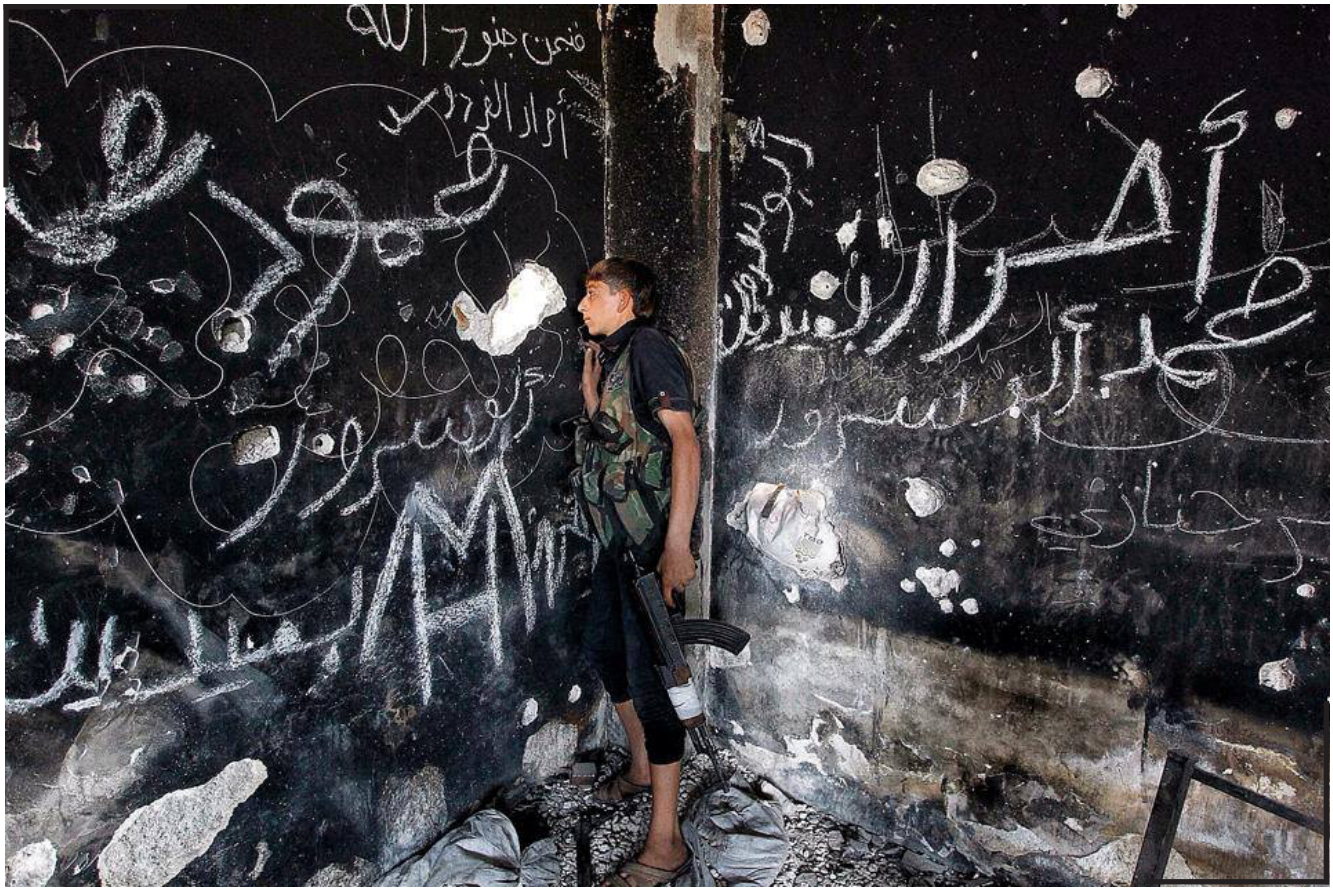

مظفر سلمان | حي الخالدية = حمص 2012

عمل للفنان يوسف عبدلكي

سوريون دائماً ولا نخجل

■ خالد قنوت

قال نادماً وبحرقة: (لقد أهين وأذل السوريون في العالم، فصاروا ملطشة للجميع). نظرت إليه وقلت له: (و هل كانوا محترمين أو لهم كرامة ببلدهم منذ خمسين سنة؟ هل كان السوري في سورية يملك أي حق؟ أليس السوري متهم حتى يثبت العكس؟ السوري المسحوق من موظف تافه في أي دائرة رسمية والمثير للسخرية أنه عند خروج هذا الموظف من مكتبه يصبح سورياً مسحوقاً آخر.

أتذكر كيف تعرضنا للصفعات واللكمات من حرس أحد الضباط عندما كنا نبحث عن غرفة ليستأجرها صديقنا القادم من ريف حلب كطالب جامعي؟ هل تذكر كيف كبل صديقنا الآخر مع خطيبته في الطريق العام ووضعا في سيارة الشرطة وسيقا لمنزل أهلها حتى يثبت أنها خطيبته؟ هل تذكر عندما حاصر عناصر الأمن العسكري كليتنا وجمعونا في بناء واحد كالغنم ثم خلعوا برفقة مسؤولي الاتحاد الوطني لطلبة سورية، كل الخزائن بحجة التفتيش عن منشورات؟ هل تذكر الاهانات التي وجهت لشباب سوريين وقفوا بطابور شباك التأشيرات من الساعة الثانية ليلاً أمام السفارة الأمريكية من موظف أمريكي على الأراضي السورية؟ طابور الانتظار الذي وصل من السفارة الأمريكية حتى المركز الثقافي بأبو رمانة.

هل تذكر شقيقك، وكان رائد بالجيش السوري، عندما هجم عليه ثلاثة وأوسعوه ضرباً بعد أن حاولوا التحرش بأختك وكانوا يصرخون نحن جنود الأسد؟ هل وهل وهل).

قبل سنة 1963 وتحديداً قبل سنة 1970، كان السوري لا يحتاج لتأشيرة دخول مسبقة لمعظم دول العالم، كان السوري المتوسط الدخل يذهب لأوربا للاصطياف، كان السوري يذهب للدراسة والتحصيل العلمي في دول العالم المتقدمة ولا يفكر ولو للحظة بالبقاء هناك ولو اعطوه وزنه ذهباً، كان معظم سفراء سورية في الخارج شعراء وأدباء قبل أن يكونوا دبلوماسيين، كان مطار دمشق الدولي مركزاً للأناقة واللطف الدمشقي، كان الشرطي المرتشي عار على أهله وعلى السلك، كان التطوع بالجيش شرف وبطولة، كان القضاء السوري الأكثر نزاهة في دول العالم، كان وكان وكان.

الدول التي تحترم مواطنيها وتحفظ حقوقهم كاملة على ارض وطنهم هي الدول التي يحترم العالم مواطنيها على أرضهم. لا كرامة لمواطن في بلاد الآخرين عندما لا يكون له كرامة في بلاده، هذه قاعدة يعرفها العالم ويعمل بها بدون أن يخطها بقوانين.

حافظ الأسد ومنذ أن استلم السلطة حول السوريين إلى مشاريع إرهابيين في العالم، حيث صار السوري بحاجة تقرير أمني من أجهزة الأمن العالمية وإلى إثباتات لحاجته للعودة لسورية عندما يطلب تأشيرة من أي سفارة وسبب السياحة لم يعد رواية يصدقها قناصل السفارات.

أيام حافظ الأسد الغابرة، صرنا مكروهين من اللبنانيين بعد دخول قوات الأسد إليها وممارسة نفس ممارساتها اليوم في سورية نفسها من قتل واغتصاب وتهريب وسرقات وصلت لبلاط المنازل، ناهيك عن الاذلال اليومي للجميع.

صار على السوري أن يطلب تأشيرة دخول للأردن ومصر وتونس ودول الخليج وتركيا، عدا العراق، وعليه أن ينتظر ردود الرفض قبل القبول.

في طلب الهجرة لكندا هناك سؤال واضح للسوري عن خدمته العسكرية وهل كانت بأي من الأجهزة الأمنية أو في لبنان؟ وهل اشترك بقتل أو تعذيب أي انسان؟.

في السفارات السورية لا تجد سوى دبلوماسيين كانوا ضباط أو صف ضباط في أجهزة الأمن لا يهمهم سوى كتابة وجمع تقارير أمنية عن كل سوري في العالم طبعاً إلى جانب اهتماماتهم العظيمة بالأعمال التجارية وبيوت ومحلات الدعارة.

السوريون يهانون في لبنان وفي العراق وفي مصر وفي الأردن وفي تركيا وفي الجزائر وفي الامارات وفي بعضها يقتلون ويعتقلون ويمنعون من التجول أو العمل وتوقف إجازات عملهم وإقاماتهم ويرحلون. السوريون يغرقون في عرض البحر المتوسط ويوضعون في مخيمات لاجئين ولها بوابات وحرس. السوريون لا يستطيعون متابعة دراساتهم في دول العالم.

كل ذلك حقيقي وصادم ومفجع بحق الانسانية والاخلاق ولكن بحكم القوانين غير المكتوبة وغير المنصوص عنها في الدساتير العالمية، لا كرامة لإنسان إن كان بلا كرامة في وطنه، فكيف بمن يقتل ويعذب حتى الموت ويعتقل في معتقلات أكثر وحشية من معسكرات النازية ويهان على الحواجز ويسرق بيته ويقصف بطيران ومدفعية جيشه وتغتصب بناته؟

للسوريين العائدين اليوم من مخيمات عرسال والزعتري وأي مخيم ذل خارج الوطن رغم المجهول الذي ينتظركم وبراميل الأسد الغادرة والحاقدة، فإن طريق الحرية خطه شهداء الثورة بدمائهم وصنعوا منه درباً للكرامة، طريق لا يحتمل نصف طريق لأنه يعني العبودية.

عندما نكمل الطريق جميعاً، سنجعل دخول سورية الحرة الحديثة حلماً للجميع.

شهداء سوريا

مجموع الشهداء (101982)

دمشق: 6891
ريف دمشق: 23354
حمص: 13431
درعا: 9268
إدلب: 11106
حلب: 20251
دير الزور: 6071
الرقة: 1189
السويداء: 80
حماة: 6811
اللاذقية: 987
طرطوس: 361
الحسكة: 711
القنيطرة: 759

8196 عدد الأطفال الذكور
3768 عدد الأطفال الإناث
7480 عدد الإناث
28467 عدد العسكريين
73507 عدد المدنيين

المصدر: مركز توثيق الانتهاكات في سوريا 9 / 8 / 2014
http://www.vdc-sy.info/